سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مكية وآياتها سبع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

تفسير الاستعاذة: المعنى: أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد، أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين.. عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من الليل، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه**»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير البسملة: المعنى: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء، مستعينًا به جل وعلا في جميع أموري، طالبًا منه وحده العون، فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعم فضله جميع الأنام.

تنبيه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن -ماعدا سورة التوبة- ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم التماسًا لمعونته وتوفيقه ومخالفة للوثنيين الذين يبدءون أعمالهم وأقوالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزى، أو باسم الشعب، أو باسم هبل.

قال «الطبري»: «إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه، أدب نبيه محمدًا ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنة يستنون بها، وسبيلًا يتبعونه عليها فقول القائل: بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تاليًا سورة ينبئ عن أن مراده: أقرأ باسم الله، وكذلك سائر الأفعال»[2].

❁ ❁ ❁ ❁

(١) أخرجه أصحاب السنن.

(ش): وصححه الألباني. (هَمْزُهُ): الْمُوتَةُ: نَوْع مِن الْجُنُون وَالصَّرْع يَعْتَرِي الْإِنْسَان، فَإِذَا أَفَاقَ، عَادَ إِلَيْهِ كَمَال الْعَقْل، (وَنَفْثُهُ): الشِّعْرُ، (وَنَفْخُهُ): الْكِبْرِيَاءُ.

(٢) «جامع البيان للطبري.

تفسير سورة الفاتحة

بَيْنَ يَدَي السُّوَرَة

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع، وتسمى «الفاتحة» لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة، والتشريع، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين، وفيها الإخبار عن قصص الأمم السابقين، والإطْلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى «أم الكتاب» لأنها جمعت مقاصده الأساسية.

فضْلَهَا: أ - روى الإمام أحمد في المسند أن» أبيَّ بن كعب «قرأ علَيَّ النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : «**والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيمُ الذي أوتيتهُ**»[1] فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧] .

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلَّى: «**لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله رب العالمين، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أوتيتُه**»[2].

التسميَة: تسمى «الفاتحة، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والشافية، والوافية، والكافية، والأساس، والحمد» وقد عدّدها العلامة «القرطبي» وذكر أن لهذه السورة اثني عشر اسمًا.

---

(١) (ش): صححه الألباني.

(٢) (ش): (أعظم سورة): اعتبارًا بعِظَم قدرها، وتفردها بالخاصية التي لم يشاركها فيها غيرها من السور، ولاشتمالها على فوائد ومعانٍ كثيرة مع وجازة ألفاظها. وقيل: (أعظم سورة): أي من حيث كثرة الثواب لقارئها (السبع المثاني) قِيلَ: لِأَنَّهَا تُثَنَّى كُلّ رَكْعَة، أَيْ: تُعَاد - أي تكرر - قراءتها في كل ركعة من التثنية وهي التكرير. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا يُثْنَى بِهَا عَلَى الله تَعَالَى، وَفِي الحديث دَلِيل عَلَى أَنَّ الْفَاتِحَة سَبْع آيَات فهي سبع آيات. وأما عطف «القرآن» علي «السبع المثاني» المراد منه الفاتحة، فمن باب عطف العام على الخاص. ونظيره في النسق «لكن» من عطف الخاص على العام قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

اللغة: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم، والتبجيل مقرونًا بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿ٱللَّهِ﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره، قال القرطبي: هذا الاسم ﴿ٱللَّهِ﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، وهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه[1]. ﴿رَبِّ﴾ الربّ: مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي: «يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربَّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب»[2] والربُّ يطلق على عدة معان وهي «المالك، والمصلح، والمعبود، والسيد المطاع» ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ العالم: اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط، وهو يشمل: الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة[3]، وقد روعي في كل من ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن «فَعْلان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة (فعيل) تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائم الإحسان[4].

---

(١) (ش): أسماء الله توقيفية، وليس منها «الموجود الحق»، ولا «المنفرد بالوجود الحقيقي». ووجود الله معلوم من الدين بالضرورة، وهو صفة لله بإجماع المسلمين، بل صفة لله عند جميع العقلاء حتى المشركين لا ينازع في ذلك إلا ملحد دهري. ولا يلزم من إثبات الوجود صفةً لله أن يكون له مُوجِدٌ؛ لأن الوجود نوعان:

الأول: وجود ذاتي وهو ما كان وجوده ثابتًا له في نفسه لا مكسوبًا له من غيره، وهذا هو وجود الله سبحانه وصفاته، فإن وجوده لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

الثاني: وجود حادث وهو ما كان حادثًا بعد عدم فهذا الذي لا بد له من موجد يوجده وخالق يحدثه وهو الله سبحانه، قال تعالى اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

وعلى هذا يوصف الله تعالى بأنه موجود ويخبر عنه بذلك في الكلام فيقال: الله موجود، وليس الوجود اسمًا، بل صفة. و«الواجد» ليس اسمًا من أسماء الله ولا صفة من صفاته، والحديث الذي ورد فيه تسميته بذلك ليس بصحيح. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٣/ ١٨٩-١٩٤).

(٢) «القرطبي» ١/ ١٣٣ .

(٣) (ش): الصواب أنهما اسمان من أسماء الله الحسنى متضمنان لصفة الرحمة.

(٤) «كشف المعاني» تفسير ابن جماعة.

قال الخطابي: الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمَّت المؤمن والكافر، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿ٱلدِّينِ﴾ الجزاء ومنه الحديث «كما تدين تُدان»[١] أي: كما تفعل تُجزى ﴿نَعْبُدُ﴾ قال الزمخشري: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مَوْلَى أعظم النعم فكان حقيقًا بأقصى الخضوع[٢] ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطريق وأصله بالسين من الاسترا ط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قَالَ الشَّاعِرُ:

شَحَنَّا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى ... تَرَكْنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف «آمين» أي استجب دعاءنا. وهي ليست من القرآن الكريم إجماعًا.

التفسير: علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي: الحمدلله، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد، المتفرد بالخلق والإيجاد، رب الإنس والجن والملائكة، ورب السماوات والأرضين، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمَّ فضله جميع الأنام، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: هو سبحانه المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك يا الله بالعبادة، ونخصك بطلب الإعانة، فلا نعبد أحدًا سواك، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع، وإيَّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم، وثبتنا على الإسلام الذي بعثت به أنبياءك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام، من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وَحَسُنَ أولئك رفيقًا ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: لا تجعلنا يا الله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم، السالكين غير المنهج القويم، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية،

---

(١) (ش): رواه ابن عدي، وضعَّفه الألباني.

(٢) «الكشاف» ١/ ١١.

فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية[1]. اللهم آمين.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الجملة خبرية لفظًا إنشائية معنىً أي قولوا «الحمدلله» وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقوله:م: الكرم في العرب.

٢ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال: إيّاه نعبد، وتقديم المفعول يفيد القصر أي: لا نعبد سواك كما في قوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

٣ - قال في «البحر المحيط»: وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع:

الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع.

الثاني: المبالغة في الثناء لإفادة «أل» الاستغراق.

الثالث: تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي: قولوا الحمد لله.

الرابع: الاختصاص في قوله ﴿لِلَّهِ﴾.

الخامس: الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين.

السادس: التقديم والتأخير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

السابع: التصريح بعد الإبهام ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

الثامن: الالتفات في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

التاسع: طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: ثبتنا عليه.

العاشر: السجع المتوازي في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ... ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقوله: ﴿نَسْتَعِينُ ... ٱلضَّآلِّينَ﴾.

الفوَائِد: الأولى: الفرق بين ﴿ٱللَّهِ﴾ و «الإله» أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات البارئ جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحقٍ أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره.

الثانية: وردت الصيغة بلفظ الجمع «نعبد ونستعين» ولم يقل «إياك أعبد وإياك أستعين» بصيغة المفرد وذلك للاعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعًا نعبدك ونستعين بك.

الثالثة: نسبَ النعمة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب

---

(١) «البحر المحيط» لأبي حيان ١/ ٣١.

فلم يقل: غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدبًا وإن كان منه تقديرًا «الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك»[1].

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

خاتمة

في بَيَان الأَسَرار القُدْسِيّة في فاتِحَة الكِتاب العَزِيز

[يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة «مقدمة في التفسير» ما نصه: «لا شك أن من تدبَّر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه، ويضيء جوانب قلبه، فهو يبتدئ ذاكرًا تاليًا متيمنًا باسم الله، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وذكّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعًا، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له، ثمّ تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة، ليست عن رغبةٍ ولا رهبة، ولكنها عن تفضلٍ ورحمة، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ «العدل» ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفًا بتحري الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغير الضالين التائهين، الذين يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه، آمين. ولا جرم أن «آمين» براعة مقطع في غاية الجمال والحسن، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة الكتاب، والتوجه إلى الله بالدعاء؟ فهل رأيت تناسقًا أدق، أو ارتباطًا أوثق، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة، وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. .» الحديث [(١)].

---

(١) (ش): (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وأَدِمْ هذا التدبير والإنعام[١]، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل، وخشوع وتذلّل، وأن تقف على رؤوس الآيات، وتعطى التلاوة حقها من التجويد أو النغمات، من غير تكلف ولا تطريب، واشتغال بالألفاظ عن المعاني، فإن ذلك يعين على الفهم، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع[٢]، وما نفع القلب شيء أفضل من تلاوة في تدبرٍ وخشوع»[٣].

«انتهى تفسير سورة الفاتحة»

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): الصواب «وأَدِمْ هذا التدبُّر والإنعام»، والتصحيح من «مقدمة في التفسير»، (والإنعام) هو الإمعان: يُقال: أَنْعَم النَّظَر فِي الشَّيْءِ، وأَمْعَنَ فِي الشَّيْءِ النَّظَر: إِذَا أَطَالَ الفِكْرَةَ فِيهِ. «أَمْعَنَ» و«أَنْعَم» يتفقان في المعنى وفي الحروف عددًا ونوعًا.

(٢) (ش): الشُّؤْبوبُ: الدُّفْعَةُ مِنَ المَطَرِ.

(٣) «مقدمة في التفسير» ص ٥٩ .

٢ سُورَةُ البَقَرَةِ ٢٨٦

مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل، وآياتها مائتان وثمانون وست آيات

بَين يَدَي السُّورَة

* سورة البقرة أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج النُّظُم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية.

* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج، والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية.

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضّحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر «آدم» عليه السلام، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري.

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب، وبوجه خاص بني إسرائيل "اليهود" لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة، ونقض العهود والمواثيق، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون، مما يوضح عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة، بدءًا من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠]، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤].

* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع، لأن المسلمين كانوا -وقت نزول هذه السورة- في بداية تكوين «الدولة الإسلامية» وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني، والتشريع السماوي، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات، ولذا فإن جماع السورة تتناول الجانب التشريعي، وهو باختصار كما يلي:

«أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل، أحكام الحج والعمرة، أحكام الجهاد في سبيل الله، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدة، تحريم نكاح المشركات، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض[1] إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة،

---

(١) (ش): كان الأصح أن يقول: «والتحذير من جماع النساء في حالة الحيض» لأن المعاشرة بغير الجماع ليست ممنوعة. فعَنْ أَنَس بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي =

لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر».

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن «جريمة الربا» التي تهدّد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١] وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم، وآخر وحي تنزَّل من السماء إلى الأرض، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه، بعد أن أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة[1].

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جلَّ وعلا برفع الأغلال والآصار، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦] وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام، ويلتئم شمل

= الْبُيُوتِ فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ» فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

وذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٢٠٥) أن مُبَاشَرَة الْحَائِض أَقْسَام:

أَحدهَا: أَنْ يُبَاشِرهَا بِالْجِمَاعِ فِي الْفَرْج، فَهَذَا حَرَام بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. بِنَصِّ الْقُرْآن الْعَزِيز وَالسُّنَّة الصَّحِيحَة.

الْقِسْم الثَّانِي: الْمُبَاشَرَة فِيمَا فَوْق السُّرَّة وَتَحْت الرُّكْبَة بِالذَّكَرِ أَوْ بِالْقُبْلَةِ أَوْ الْمُعَانَقَة أَو اللَّمْس أَوْ غَيْر ذَلِكَ، وَهُوَ حَلَال بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاء.

الْقِسْم الثَّالِث: الْمُبَاشَرَة فِيمَا بَيْن السُّرَّة وَالرُّكْبَة فِي غَيْر الْقُبُل وَالدُّبُر، وَفِيهَا ثَلَاثَة أَوْجُه: أَنَّهَا حَرَام. وَالثَّانِي: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِحَرَام، وَلَكِنَّهَا مَكْرُوهَة كَرَاهَة تَنْزِيه، وَالْوَجْه الثَّالِث: إِنْ كَانَ الْمُبَاشِر يَضْبِط نَفْسه عَن الْفَرْج، وَيَثِق مِنْ نَفْسه بِاجْتِنَابِهِ إِمَّا لِضَعْفِ شَهْوَته، وَإِمَّا لِشِدَّةِ وَرَعه ؛ جَازَ وَإِلَّا فَلَا.

وَقَالَ: إِنَّ الْوَجْه الثاني أَقْوَى مِنْ حَيْثُ الدَّلِيل.

(١) (ش): اختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كلٌّ بما أداه إليه اجتهاده، وذلك بناءً على ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم، ويحتمل أن كُلًّا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم ﷺ، يمكن القطع به .

وأكثر العلماء على أن آخر آية نزولًا هي قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

السورة أفضل التئام!

التسمِيَـة: سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة، التي ظهرت في زمن موسى الكليم، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهانًا على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله.

فضـلهَا: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**» أخرجه مسلم والترمذي. وقال ﷺ: «**اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطَلَة**» يعني السَّحَرَة. رواه مسلم في صحيحه.

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

اللغة: ﴿رَيْبَ﴾ الرَّيبُ: الشك وعدم الطُّمأنينة يقال: ارتاب، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة، قال الزمخشري: الريب مصدر رَابَه إذا أحدث له الريبة وهى قلق النفس واضطرابها، ومنه رَيْبُ الزمان لنوائبه[1] ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتِّقاء المكروه بما تجعله حاجزًا بينك وبينه، قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ ... فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ[2]

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته، وجماع التقوى أن يمتثل العبد الأوامر، ويجتنب النواهي ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الحواس، وكل شيء مستور فهو غيب، كالجنة، والنار، والحشر والنشر قال الراغب: الغيب ما لا يقع تحت الحواس[3].

---

(١) «الكشاف» ١/ ٢٧.

(ش): في تفسير الزمخشري (١/ ٣٤): ومنه: ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه.

(٢) (ش): النصيف: الخمار، قال ﷺ: «وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (رواه البخاري). ومعنى البيت أنها كانت عليها النصيف فلما (سَقَطَ النَّصِيفُ) -ومن عفافها أنها (لَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ)- فتناولت النَّصِيفُ بإحدى اليدين وسترت وجهها باليد الأخرى.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: الفوز والنجاح[١] قال أبو عبيدة: كل من أصاب شيئًا من الخير فهو مفلح[٢] وقال البيضاوي: المفلح: الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر[٣]، وأصل الفلح في اللغة: الشق والقطع، ومنه قولهم: «إن الحديد بالحديد يفلح» أي: يشق، ولذلك سمي الفلاح فلاحًا لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كَفَرُوا۟﴾ الكفر لغة: ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافرًا لأنه يجحد النعمة ويسترها، ومنه قيل للزارع ولليل: كافر، قال تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: أعجب الزُّرَّاع، وسمى الليل كافرًا لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار: الإعلام مع التخويف، فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار، لا إنذار ﴿خَتَمَ﴾ الختم: التغطية على الشيء والطبع عليه حتى لا يدخل شيء، ومنه خَتْمُ الكتاب[٤].

﴿غِشَٰوَةٌ﴾ الغشاوة: الغطاء من غشاه إذا غطاه، ومنه الغاشية وهى القيامة، لأنها تغشى الناس بأهوالها.

التفسير: ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم، فينتبهون إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بينات، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على «إعجاز القرآن» فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن. يقول العلامة ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشري في «تفسيره» «الكشاف» ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام «ابن تيمية» ثم قال: ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢] ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ - ٢] ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٣] وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن[٥]، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتابُ الذي لا يدانيه كتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر

---

(١) «مفردات القرآن» للراغب.

(٢) «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ص ٢٩ .

(٣) «البيضاوي» ١/ ١٠ .

(٤) (ش): الكتاب: رسالة أو صحيفة مكتوبة، والخَتْم: الخاتم، ما يُختم به على الأوراق، يصنع عادة من المعدن أو المطاط، وله مِقْبَض.

(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٢٧٠.

وتدبر، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هادٍ للمؤمنين المتقين، الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ويدفعون عذابه بطاعته، قال ابن عباس: المتقون هم الذين يتقون الشرك، ويعملون بطاعة الله، وقال الحسن البصري: اتقوا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوْا ما افتُرض عليهم. . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث، والجنة، والنار، والصراط، والحساب، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس: إقامتُها: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[1] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان، والآية عامة تشمل الزكاة، والصدقة، وسائر النفقات، وهذا اختيار ابن جرير، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال، قال ابن كثير: كثيرًا ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد، فكلٌّ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[2]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي ويعتقدون اعتقادًا جازمًا لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ، وجنةٍ، ونار، وحساب، وميزان، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم.

البَلاَغة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - المجاز العقلي ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين ففيه مجاز عقلي.

٢ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ للإيذان بعلو شأنه، وبعد مرتبته في الكمال، فنُزِّل بُعْد المرتبة منزلة البعد الحسي.

٣ - تكرير الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للعناية بشأن المتقين، وجيء بالضمير ﴿هُمُ﴾ ليفيد الحصر كأنه قال: هم المفلحون لا غيرهم.

٤ - التيئيس من إيمان الكفار ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالجملة

---

(١) اقتبسنا التفسير من «الطبري» وابن كثير وتفسير الجلالين.

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٣٠.

سيقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان، وعدم استعدادهم للإيمان، ففيها تيئيس وإقناط من إيمانهم.

٥ - الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ شبَّه قلوبهم لتَأَبّيها[١] عن الحق، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمُّح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغشَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية[٢].

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى صفاتِ المؤمنين في الآيات السابقة، أعقبها بذكر صفات الكافرين، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار، والتمييز بينَ أهل السعادة وأهل الشقاوة «وبضدها تتميز الأشياء».

التفسير: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتساوى عندهم ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أي سواءٌ أَحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له ... ثم بيَّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرق فيها إيمان. قال المفسرون: الختمُ التغطيةُ والطبعُ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥][٣] ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء، فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطَّاة بحجب كثيفة، لذلك يرون الحقَّ فلا يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه قال أبو حيان: شبَّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحقِّ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية، بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، وذلك لأنها كانت - مع صحتها وقوة إدراكها - ممنوعة عن قبول الخير وسماعه، وتلمح نوره،

---

(١) (ش): تأبَّى عليه: تكبَّر وامتنع.

(٢) انظر «تلخيص البيان» للشريف الرضى ١/ ٣، «والبحر المحيط» لأبي حيان ١/ ٥١ .

(٣) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم ففيه تحقيق وتفصيل جميل.

وهذا بطريق الاستعارة[١] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخِرة عذاب شديدٌ لا ينقطع، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله.

قال الله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا «المنافقين» وهم الصنف الثالث، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحًا لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يئول إليه حالهم من الهلاك والدمار.

اللغَة: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ الخِداع: المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن، وأصله الإخفاء، ومنه سُمِّيَ الدَّهْرُ خَادِعًا لِمَا يُخْفِي مِنْ غَوَائِلِهِ[٢]، وسُمي المِخْدع مِخْدعًا لتَسَتُّر أصحاب المنزل فيه ﴿مَّرَضٌ﴾ المرض: السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسيًّا كمرض الجسم، أو معنويًا كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء، قال ابن فارس: المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ، أو نفاق: أو تقصير في أمر ﴿تُفْسِدُوا۟﴾ الفساد: العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل، الضعيف الرأي، القليل المعرفة، بمواضع المنافع والمضار، وأصل السَّفه، الخِفَّة، والسفيه: الخفيف العقل. قال علماء اللغة: السَّفه خفةٌ

(١) «تفسير «البحر المحيط»» لأبي حيان ١/ ٥١ .
(٢) (ش): غائلة: فساد، شرٌّ، هَلَكة.

وسخافة رأى يقتضيان نقصان العقل، والحِلْمُ يقابله[١] ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ارتفع وعلا وجاوز حده، والطاغية: الجبار العنيد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ العَمَه: التحير والتردُّد في الشيء يقال: عَمِه يَعْمَه فهو عَمِه قال رؤبة:

أعْـمَـى الْـهُـدَى بـالْـحَـائِـرِيـنَ الْـعُـمَّـهِ

قال الفخر الرازي: العَمَهُ مثل العمى، إلا أن العَمَى عام في البصر والرأي، والعَمَه في الرأي خاصة، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه[٢] ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ حقيقة الاشتراء: الاستبدال، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب، والعرب تقول لمن استبدل شيئًا بشيء: اشتراه قَالَ الشَّاعِرُ:

فَـإِنْ تَزْعُمِينِي كُنْتُ أَجْـهَـلُ فِيكُمْ فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكِ بِالْجَهْلِ[٣]

﴿صُمٌّۢ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عُمْىٌ﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿كَصَيِّبٍ﴾ الصَيِّبُ: المطر الغزير مأخوذ من الصوب وهو النزول بشدة قَالَ الشَّاعِرُ:

سَقَتْكِ رَوَايَـا الْـمُـزْنِ حَيْثُ تصوب[٤]

﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، مشتقة من الصَّعْق وهو شدة الصوت ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السماء في اللغة: كلُّ علاكَ فأظلَّك، ومنه قيل لسقف البيت سماء، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا سَـقَـطَ الـسَّـمَـاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ رَعَـيْـنَـاهُ وَإِنْ كَـانُـوا غِـضَـابـا[٥]

﴿يَخْطَفُ﴾ الخَطْفُ: الأخذ بسرعة ومنه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] وسُمِي الطير خُطّافًا لسرعته، والخاطف الذي يأخذ الشيء بسرعة شديدة.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم «عبد الله بن أُبي ابن سلول، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس» كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنّا لنجد في كتابنا نعته وصفته[٦].

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة»، «والصحاح»، «والقاموس».

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ٧١ .

(٣) (ش): معنى البيت: إن كنت تزعمين أنى كنت أجهل في هواى لكم فقد شريت بذلك الجهل حلمًا وعقلاً، ورجعت عما كنت عليه.

(٤) (ش): (الراوية): المزادة: وعاء الماء في السفر. روايا المزن: التي تروي بكثرة مائها. صابَ المطرُ الأرضَ: انْصَبَّ ونزل.

(٥) (ش): رَعَيْنَاهُ من الرعي، أي: رَعَيْنَا نبات الأرض في مكان نزول المطر. قصد بلفظ السماء أوّلاً المطر الّذي ينزل من السماء، وأعاد الضمير عليه مريدًا به النبات الذي يَنْبُت في الأرض بسبب ارْتواء الأرض بالمطر.

(٦) تفسير الفخر الرازي ٢/ ٦١ . (ش): هكذا ذكره الفخر الرازي بدون إسناد.

التفسير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم: صدَّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي وصدَّقنا بالبعث والنشور ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين، لأنهم يقولون ذلك قولًا دون اعتقاد، وكلامًا دون تصديق. قال البيضاوي: هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله، لأنّهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعًا واستهزاء، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان، وضرب لهم الأمثال[1] ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يعملون عمل المخادِع بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر، يعتقدون - بجهلهم - أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، وما علموا أن الله لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية قال ابن كثير: النفاق هو إظهار الخير، وإِسرارُ الشر وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيته. وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[2] ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي ولا يُحسّون بذلك ولا يفطنون إليه، لتمادي غفلتهم، وتكامل حماقتهم ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجسًا فوق رجسهم، وضلالًا فوق ضلالهم، والجملةُ دُعَائِيَّة

قال ابن أسلم: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرضًا في الجسد، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجسًا وشكًّا[3] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي ولهم عذابٌ مؤلمٌ بسبب كذبهم في دعوى الإيمان، واستهزائهم بآيات الرحمن. . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وإذا قال لهم بعض المؤمنين: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن، والكفر والصَدِّ عن سبيل الله. قال ابن مسعود: الفسادُ في الأرض هو الكفرُ، والعملُ بالمعصية، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي ليس شأننا الإفسادُ أبدًا، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي: تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] ولذلك ردَّ الله

(١) «تفسير البيضاوي» ١/ ١١.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٣٣.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣.

عليهم أبلغ ردٍّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد ﴿أَلَآ﴾ المنبهة و ﴿إِنَّ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور[١] فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيها الناس، إنهم هم المفسدون حقًّا لا غيرهم، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي وإذا قيل للمنافقين: آمنوا إيمانًا صادقًا لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء، كما آمن أصحاب النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤمن كإيمان هؤلاء الجهلة أمثال «صهيب، وعمار، وبلال» ناقصي العقل والتفكير؟! قال البيضاوي: وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالٍ كصهيب وبلال[٢] ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقًّا، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهًا بلا امتراء، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

أكَّد وَنبَّه وحصر السفاهة فيهم، ثم قال تعالى منبهًا إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقًا ومصانعة ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم، أهلِ الضلالِ والنفاق ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي قالوا لهم: نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد، وإنما نستهزئ بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس: يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] قال ابن كثير: هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف[٣]، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ومثل ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ فالأول ظلم والثاني عدل[٤] ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويزيدهم - بطريق

---

(١) «البيضاوي» ١/ ١٢.

(٢) «البيضاوي» ١/ ١٢.

(٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان «المشاكلة» وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله:

قَالُوا: اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ ... قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا

(ش): (نُجِدْ) من الإجادة. (اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا): أي خيطوا لي جُبَّةً وَقَمِيصًا، فذكر الخياطة بلفظ الطبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطعام.

(٤) (ش): صفات الله تعالى كلها صفات كمال، دالة على أحسن المعاني وأكملها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ =

الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويتردّدون حيارى، لا يجدون إلى المخرج - منه سبيلًا لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلًا. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ ﴾ أي ما ربحت صفقتُهم في هذه المعارضةِ والبيع ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك، لأنهم خسروا سعادة الدارين ثم ضرب تعالى مثلين وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة فقال ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا ﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد نارًا ليستدفئ بها ويستضيء، فما اتقدت حتى انطفأت، وتركته في ظلام دامس وخوفٍ شديد ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ أي فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمِن، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية، فتلاشت النار وعُدم النور ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير: ضرب الله

= [الروم:٢٧]. ومعنى المثل الأعلى أي الوصف الأكمل. والصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه. فهذه يوصف الله تعالى بها وصفًا مطلقًا ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة. . . إلخ.

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها، فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبدًا، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة.. إلخ.

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالًا، ويمكن أن تكون نقصًا، على حسب الحال التي تُذكر فيها.

فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالًا يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصًا لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء، فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان. . ونحو ذلك. أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص. ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيدًا بما يجعله كمالًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النساء:١٤٢]. فهذا خداع بالمنافقين. وقال: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال عن المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين. فهذه الصفات تعتبر كمالًا في هذا السياق الذي وردت فيه. ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه. . . ونحو ذلك. ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخادع وصفًا مطلقًا. لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا.

فالله سبحانه وتعالى ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴾. وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾. وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾. وقوله: ﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾، فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحُسْن وإن كان من العبد قبيحًا سيئًا لأنه ظالم فيه ومُوقِعُه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه ومُوقِعُه بأهله ومن يستحقه.

للمنافقين هذا المثل، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله .. فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى، واستحبابهم الغيَّ على الرشد، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير، ولا يعرفون طريق النجاة[1] ﴿ صُمٌّ﴾ أي هم كالصم لا يسمعون خيرًا ﴿بُكْمٌ﴾ أي كالخرص لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْيٌ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال. ثم ثنَّى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادة في الكشف والإيضاح فقال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد، أظلمت له الأرض، وأرعدت له السماء، مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية، ورعدٌ قاصف، وبرقٌ خاطف ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى محيط بهم بقدرته، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه، كما لا يفوتُ من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي يقارب البرقُ لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم. . وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل، فإذا صادفوا من البرق لمعة – مع خوفهم أن يخطف أبصارهم – انتهزوها فرصة فَخَطَوْا خطواتٍ يسيرة وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير، وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أحدٌ في الأرض ولا في السماء قال ابن جرير: إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قادر[2].

البَلاَغَة: تضمنت الآيات الكريمة وجوهًا من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي:

---

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٦.

(٢) «تفسير الطبري» ١/ ٧٩.

أولًا: المبالغة في التكذيب لهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ كان الأصل أن يقول: «وما آمنوا» ليطابق قول من يقول «آمنا» ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهم من عداد المؤمنين وأكده بالباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم.

ثانيًا: الاستعارة التمثيلية ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعيةٍ تخادع سلطانهم واستعير اسم المشبَّه به للمشبه بطريق الاستعارة.

ثالثًا: صيغة القصر ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذا من نوع «قصر الموصوف على الصفة» أي نحن مصلحون ليس إلاَّ.

رابعًا: الكناية اللطيفة ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرضُ في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق؛ لأن المرض فسادٌ للبدن، والنفاق فساد للقلب.

خامسًا: تنويع التأكيد ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات ﴿أَلَآ﴾ التي تفيد التنبيه، و ﴿إِنَّ﴾ التي هي للتأكيد، وضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ ثم تعريف الخبر ﴿ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ ومثلها في التأكيد ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍّ وأحكمه.

سادسًا: المشاكلة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ سمَّى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق؛ في اللفظ مع الاختلاف في المعنى.

سابعًا: الاستعارة التصريحية ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ المراد استبدلوا الغيَّ بالرشاد، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم، فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحًا بقوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا[1].

ثامنًا: التشبيه التمثيلي ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وكذلك ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وفي المثال الثاني شبَّه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبَّه شبهات الكفار بالظلمات، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق.. إلخ[2].

تاسعًا: التشبيه البليغ ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أي هم كالصم والبكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا.

عاشرًا: المجاز المرسل ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رءوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن.

---

(١) قال الزمخشري: وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا، انظر «الكشاف» ١/ ٥٣ .

(٢) قال الفخر الرازي: والتشبيه ههنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نورًا، ثم بنفاقهم ثانيًا أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لخسران نفسه أبد الآبدين. الرازي ٢/ ٧٣ .

الحادي عشر: توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات، وهذا له وقع في الأذن حسن، وأثر في النفس رائع مثل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إلخ وهو من المحسنات البديعية[1].

الفوائد: الأولى: الغاية من ضرب المثل: تقريب البعيد، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الثانية: وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب، الخداع، المكر، السَّفه، الاستهزاء، الإفساد في الأرض، الجهل، الضلال، التذبذب، السخرية بالمؤمنين) أعاذنا الله من صفات المنافقين.

الثالثة: حكمة كفه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمه ﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال لعمر: «**أكره أن يتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه**»[2].

لطيفَة: قال العلامة ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «ذهب الله بنارهم» مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق وهو «النارية»!! وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بضوئهم، لأن الضوء زيادةٌ في النور، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل! وتأمل كيف قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحَّد النور ثم قال ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ فجمعها، فإن الحقَّ واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طُرُق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد سبحانه «الحقَّ» وجمع «الباطل» في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل ووحَّد سبيل الحق[3].

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ﴾

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر، ليتذوق القارئ بعض روائع القرآن، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية، والصور البلاغية، ما يتذوقه الإنسان ويعجز عن وصفه اللسان.

(٢) ذكرها ابن كثير كذا في «المختصر» ١/ ٣٣.

(٣) نقلاً عن «محاسن التأويل» للقاسمي.

أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة «المؤمنين، والكافرين، والمنافقين» وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة، أو إيمان أو نفاق، وضرب الأمثال ووضَّح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين، وعَرَّف الناس بنعمه ليشكروه عليها، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتنًّا عليهم بما خلق ورزق، وأبرز لهم «معجزة القرآن» بأنصع بيان وأوضح برهان ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب.

اللغَة: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ الخلق: الإيجاد والاختراع بلا مثال، وأصله في اللغة التقدير يقال: خَلَق النعل إذا قدَّرها وسوَّاها بالمقياس، وخلق الأديمَ للسقاء إذا قدَّره. قال الحجاج: ما خلقتُ إلا فريتُ، ولا وعدتُ إلا وفيتُ «أي ما قدرت شيئًا إلا أمضيته، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به». ﴿فِرَاشًا﴾ الفراش: الوطاءُ والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿بِنَاءً﴾ البناء: ما يُبنى من قبةٍ أو خباءٍ أو بيت ﴿أَندَادًا﴾ جمع نِدّ وهو الكفء والمثيل والنظير، ومنه قول علماء التوحيد «ليس للهِ نِدٌّ ولا ضِدّ» قال حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ[1]

وقال الزمخشري: «النِدُّ: المثل ولا يقال إلا للمخالف المناوئ، قال جرير:

أَتَيْمًا تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدًّا؟[2]

﴿وَقُودُهَا﴾ الوَقود: الحطب الذي توقد به النار قال «القرطبي»: الوَقود بالفتح الحطب، وبالضم مصدر بمعنى التوَقُّد[3] ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيِّئَتْ، وأعددنا هيأنا قال البيضاوي: ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيئت لهم وجُعلت عُدَّة لعذابهم[4] ﴿وَبَشِّرِ﴾ البشارة: الخبر السارُّ الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤] ﴿أَزْوَاجٌ﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥] فالمرأة زوج الرجل،

(١) «القرطبي» ١/ ٢٣٠ .
(٢) «الكشاف» ١/ ٧٢ .
(٣) «القرطبي» ١/ ٢٣٨ .
(٤) «البيضاوي» ١/ ١٨ .

والرجل زوج المرأة قال الأصمعي: لا تكاد العرب تقول زوجة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ باقون دائمون.

التفسير: يقول تعالى منبهًا العبادَ إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نِعَم الله الجليلة عليكم، واعبدوا الله ربكم الذي ربَّاكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، اعبدوه بتوحيده، وشكره، وطاعته ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي: لما عدَّد تعالى فِرَق المكلفين، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هزا للسَّامع، وتنشيطًا له، واهتمامًا بأمر العبادة وتفخيمًا لشأنها، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ[1]، ثمَّ عدَّد تعالى نِعَمه عليهم فقال: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي جعلها مهادًا وقرارًا، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها. قال البيضاوي: جعلها مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطَّحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[2] ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ أي وسقفًا للأرض مرفوعًا فوقها كهيئة القبة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ أي مطرًا عذبًا فراتًا أنزله بقدرته من السحاب ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة، وأنتم تعلمون أنها لا تَخْلُق شيئًا ولا تَرْزق، وأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده، ذو القوة المتين قال ابن كثير: شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم، وإسباغهه عليهم النِّعَم، والمرادُ بالسَّماء هنا السحاب، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار ورزقًا لهم ولأنعامهم، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره[3]، ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أي وإذا كنتم أيها الناس في شك وارتياب من صدق هذا القرآن، المعجز في بيانه، وتشريعه، ونظمه،

---

(١) «البيضاوي» ١/ ١٦.

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة، ورأي الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور روادُ الفضاء حولها في هذا العصر.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٣٨.

الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى. قال البيضاوي: المعنى ادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غيرَ اللهِ سُبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله[1] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أنه مختَلَقٌ وأنه من كلام البشر، وجوابُه محذوف دلَّ عليه ما قبله. ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورةٍ من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضًا على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] أي: معينًا قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، ﴿وَلَن﴾ لنفي التأبيد[2] في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا، وهذه أيضًا معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا، غير خائفٍ ولا مشفق أنَّ هذا القرآن لا يُعارضُ بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآنُ جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام[3] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ أي فخافوا عذاب الله، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي اتقوا النار التي مادتُها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله: تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال مجاهد: حجارةٌ من كبريت أنتن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هُيّئت تلك النارُ وأُرصدت للكافرين الجاحدين، ينالون فيها ألوان العذاب المهين.

ثم لما ذكر ما أعدَّه لأعدائه، عطف عليه بذكر ما أعدَّه لأوليائه، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وبَشِّرْ يا محمد المؤمنين المتقين، الذين كانوا في الدنيا محسنين، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي بأن

(١) «البيضاوي» ١/ ١٧.

(٢) (ش): الصواب: أن يقال النفي المؤبَّد؛ لأن نَفْيَ التأبيد معناه عدم التأبيد.

(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» ١/ ٤١.

لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة[١] ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورُزقوا رزقًا من ثمار الجنة ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة. قال المفسرون: إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قُدّم لهم مرة ثانية قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل فتقول الملائكة: كلْ يا عبد الله فاللون واحدٌ والطعم مختلف[٢] قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي متشابهًا في الشكل والمنظر، لا في الطعم والمَخْبر. قال ابن جرير: يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم قال ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية. قال ابن عباس: مطهَّرة من القذر والأذى وقال مجاهد: مطهَّرة من الحيض والنفاس، والغائط والبول والنخام، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧] ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون، وهذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع.

البَلاَغَة: ١ - ذكر الربوبية ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم.

٢ - الإضافة ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ للتشريف والتخصيص، وهذا أشرف وصفٍ لرسول الله ﷺ.

٣ - التعجيز ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز، وتنكيرُ السورة لإرادة العموم والشمول.

٤ - المقابلة اللطيفة ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء، والفراش والبناء، وهذا من المحسنات البديعية.

٥ - الجملة الاعتراضية ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان.

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن.

---

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود.

(ش): ضعفه أبو إسحق الحويني. وعن مسروق قال: «أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وثمرها كالقلال، كلما أخذ ثمرةً عادت مكانها أخرى، والعنقود: اثنا عشر ذراعًا». رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» وقال الحويني: «سنده صحيحٌ». أخرجه ابن مردويه في «تفسيره»- كما في ابن كثير (٧/ ٢٩٧)- وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٥)، وفي «صفة الجنة»

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

المنَاسَبَة: لما بينّ تعالى بالدليل الساطع، والبرهان القاطع، أن القرآن كلام الله لا يتطرأ إليه شك، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورةٍ من أقصر سوره، وذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل، والذباب، والعنكبوت، والنمل) إلخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلًا عن كلام ربّ الأرباب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة، وردَّ عليهم بأنَّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه، إذا كان ذكر المثل مشتملًا على حِكَم بالغة.

اللغَة: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ﴾ الحياء: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم، والمراد به هنا لازمه وهو الترك، قال الزمخشري: أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[1] ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما دونها في الصغر ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أصل الفسق في كلام العرب: الخروج عن الشيء، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه، قال الفراء: الفاسق

---

(١) «الكشاف» ١/ ٨٥.

(ش): هذا تأويلٌ للحياء في حق الله تعالى بغير معناه الحقيقي، فالْحَيَاءُ وَالاسْتِحْيَاءُ صفةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجَلَّ بالكتاب والسنة، و (الحَيِيُّ) من أسمائه تعالى. وحياؤه تعالى وصْفٌ يليق به، ليس كحياء المخلوقين، الذي هو تغير وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يُعَابُ أو يُذَمُّ. بل هو حياء الكمال يليق بالله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه وتعالى يوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين، فالقول في الْحَيَاءِ وَالاسْتِحْيَاء كالقول في سائر ما أثبته الله عزَّ وجلَّ لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الصفات، والواجب في جميع ذلك هو الإثبات مع نفي مماثلة المخلوقات. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فيوصَفُ ربنا سبحانه وتعالى بالحياء والاستحياء كما في النصوص الشرعية على وجه لا نقص فيه؛ بل على الوجه اللائق من غير تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل. ولا يجوز تأويلها بغير معناها الظاهر من لوازمها وغير ذلك.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ». (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني). وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ». (رواه أبو داود وصححه الألباني).

مأخوذ من قولهم: «فسقت الرطبة من قشرها» أي خرجت، ويسمى الفاسق فاسقًا لخروجه عن طاعة الله، وتسمى الفأرة فويسقه لخروجها لأجل المضرة[١]، ﴿يَنقُضُونَ﴾ النقض: فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناءٍ، أو حبل، أو عهد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢] وقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي: فبنقضهم الميثاق ﴿عَهْدَ﴾ العهد: المَوْثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد. ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ الاستواء في الأصل: الاعتدال والاستقامة يقال: استوى العود إذا قام واعتدل، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصدًا مستويًا، وقال ثعلب: الاستواء: الإقبال على الشيء[٢]، ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه: صيّرهن.

سَبَبُ النزّول: لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله الآية[٣].

التفسير: يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيُّ مثل كان، بأي شيءٍ كان، صغيرًا كان أو كبيرًا ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق، لا يقول غير الحق، وأن هذا المثل من عند الله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون: ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ أي يضل بهذا المثل كثيرًا من الكافرين لكفرهم به، ويهدي به كثيرًا من المؤمنين لتصديقهم به، فيزيد أولئك ضلالة، وهؤلاء هدىً ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله، الجاحدين بآياته ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية، من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله، والتصديق بالرسل، والعمل بالشرائع ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والقرابات،

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي ٢/ ١٤٧.

(٢) الصاوي على الجلالين ١/ ١٩، «و«الكشاف» ١/ ٩٢ . (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٣): ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَالِاسْتِوَاءُ هَاهُنَا تَضَمَّنَ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالِ؛ لِأَنَّهُ عُدِّيَ بـ (إِلَى).

(٣) «القرطبي» ١/ ٢٤٤، والصاوي ١/ ١٧. (ش): ضعيف جدًّا، أخرجه الواحدي في «أسباب النزول».

واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء، وقطع الأرحام، وترك موالاة المؤمنين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، والفتن، والمنع عن الإيمان، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي أولئك المذكورون، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحة هم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق، وتنكرون الصانع ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي وقد كنتم في العدم نُطفًا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء الآجال ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث من القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء يوم النشور.

ثم ذكر تعالى برهانًا على البعث فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ثم وجّه إرادته إلى السماء ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي صيّرهن وقضاهن سبع سماوات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذرأ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك - وهي أعظم منكم - قادر على إعادتكم؟! بلى إنه على كل شيء قدير.

البَلاَغَة: ١ - قوله: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦ﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم، والمعنى: لا يترك فعبّر بالحياء عن الترك، لأن الترك من ثمرات الحياء، ومن استحيا من فعل شيء تركه[1].

٢ - قوله: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالحبل، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية.

٣ - قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور، وهو ضرب من ضروب البديع.

٤ - قوله ﴿عَلِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء، قال أبو حيان: وصف تعالى نفسه بـ(عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علامة) ولا يجوز وصفه به تعالى[2].

الفوَائِد: الأولى: قال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمرًا تستدعيه حال المتمثل له، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحًا جليًّا، كيف تمثَّل له بالضياء

---

(١) أفاده الزمخشري.

(ش): تقدم قبل قليل أن هذا تأويلٌ للحياء في حق الله تعالى بغير معناه الحقيقي، وأن هذا لا يجوز.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٣٦ .

والنور؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثّل له بالظلمة؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أندادًا لله تعالى ليس أحقر منها وأقل، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] وجعلت أقل من الذباب وأخسَّ قدرًا ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣] والعجبُ منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور، والحشرات والهوام، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم[١].

الثانية: قدّم الإضلال على الهداية ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوءهم ويفتُّ في أعضادهم، وأوثرت صيغة الاستقبال إيذانًا بالتجدد والاستمرار، أفاده العلامة أبو السعود[٢].

الثالثة: قال ابن جزي في «التسهيل»: وهذه الآية ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض، وقوله: تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] ظاهره خلاف ذلك، والجواب من وجهين: أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض، والآخر تكون ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الأخبار[٣].

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

المناسبة: لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعًا، وأخرجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه، بجعله خليفة، وإسكانه دار الكرامة، وإسجاد الملائكة تعظيمًا لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، ولهذا ناسب أن يذكّرهم بذلك، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم.

اللغة: ﴿وَإِذْ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر حين أو اذكر وقت، وقد يصرح بالمحذوف كقوله: تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: ٢٦] قال المبرد: إذا جاء

---

(١) «الكشاف» ١/ ٨٣ .

(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٦٠ .

(٣) «التسهيل في علوم التنزيل» ١/ ٤٣ .

«إِذْ» مع مستقبل كان معناه ماضيًا، نحو قوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] معناه إِذْ مكروا، وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلًا كقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٤] و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النصر: ١] أي يجيء[1]، ﴿خَلِيفَةً﴾ الخليفة: من يخلف غيره وينوب منابه، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عَزَّ وَجَلَّ في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦] الآية[2] ﴿وَيَسْفِكُ ﴾ السفك: الصب والإراقة لا يستعمل إلا في الدم قال في «المصباح»: وسفك الدم: إراقة وبابه ضرب ﴿نُسَبِّحُ ﴾ التسبيح: تنزيه الله وتبرئته عن السوء[3]، وأصله من السَّبْح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] فالمسَبِّح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿وَنُقَدِّسُ ﴾ التقديس: التطهير ومنه الأرض المقدسة، وروح القدس، وضده التنجيس، وتقديس الله معناه: تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي «صحيح مسلم» أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**» ﴿أَنۢبِـُٔونِى ﴾ أخبروني والنبأ: الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾ [ص:٦٧] ﴿تُبْدُونَ ﴾ تظهرون ﴿تَكْتُمُونَ ﴾ تخفون ومنه كتم العلم، أي: إخفاؤه.

التفسير: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام: كيف تستخلف هؤلاء، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ أي يريق الدماء بالبغي والاعتداء! ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أي نعظم أمرك ونطهر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفيٌّ عليكم، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها

---

(١) «القرطبي» ١/ ٢٦٢ .

(٢) (ش): ذكر الشيخ بكر أبو زيد في «معجم المناهي اللفظية» (ص: ٢٤٧- ٢٤٨) أن لفظ «خليفة الله» اختلف فيه أهل العلم على ثلاثة أقوال: الأول: الجواز، فيجوز أن يقال: فلان خليفة الله في أرضه. الثاني: منع هذا الإطلاق؛ لأن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره، والله تعالى شاهد غير غائب، فمحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه وتعالى الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته. والثالث: - وهو ما قرره ابن القيم - إن أُريد بالإضافة إلى الله: أنه خليفة عنه، فالصواب قول الطائفة المانعة فيها. وإن أُريد بالإضافة: أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافة. وحقيقتها: خليفة الله الذي جعله الله خلفًا عن غيره.

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: «هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء» «القرطبي» ١/ ٢٧٦ .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أي أسماء المسمّيات كلها قال ابن عباس: علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبكيت[1] ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ أي أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته. الحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصّه بالمعرفة التامة دونهم، من معرفة الأسماء والأشياء، والأجناس، واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ أي ننزهك يا الله عن النقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء، وسمَّى كل شيء باسمه، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي قال تعالى للملائكة: ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السماوات والأرض عنكم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أي ما تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي تُسِرُّون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقًا أفضل منكم، رُوِيَ أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام، رأت الملائكة فطرته العجيبة، وقالوا: ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه[2].

البَلاَغَة: ١ - التعرض بعنوان الربوبية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ للاهتمام بما قُدّم، والتشويق إلى ما أُخّر.

---

(١) (ش): التَّبْكِيتُ: التَّقْرِيع والتَّوبيخ. وَالغَلَبَةُ بالحُجَّةِ: أي أَنْ تُكَلِّمَ خَصْمَكَ حَتَّى تَنْقَطِعَ حُجَّتُهُ. ولعل المعنى الثاني هو المقصود هنا، فقد ذكر المؤلف قبل ذلك أنهم إنما قالوا ما قالوا على سبيل التعجب والاستعلام، فإذا كان سؤالهم عن الحكمة، لا على وجه الاعتراض، فعَلَامَ يكون التَّقْرِيع والتَّوبيخ؟!

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٥٢، «وأبو السعود» ١/ ٦٩.

(ش): ذكره المؤلف هنا بصيغة التمريض «رُوِيَ» التي تشير إلى ضعف الرواية، ولم أجد في ذلك حديثًا ثابتًا عن النبي ﷺ نستدل به على هذا الأمر الغيبيّ، وما في «تفسير ابن كثير» قاله قتادة بصيغة التمريض عن ابن عباس حيث قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ لَمَّا أَخَذَ فِي خَلْقِ آدَمَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: «مَا اللهُ خَالِقٌ خَلْقًا أَكْرَم عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ مِنَّا»، فَابْتُلُوا بِخَلْقِ آدَمَ، وَكُلُّ خَلْقٍ مُبْتَلًى كَمَا ابْتُلِيَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِالطَّاعَةِ فَقَالَ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١].

وفي «تفسير الطبري» (١/ ٥٣٢) عن الْحَسَنِ البصري أنه قال: إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ رَأَتِ الْمَلَائِكَةُ خَلْقًا عَجِيبًا، فَكَأَنَّهُمْ دَخَلَهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَأَسَرُّوا ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: «وَمَا يُهِمُّكُمْ مِنْ هَذَا الْمَخْلُوقِ إِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْهُ».

٢ - الأمر في قوله تعالى ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت[١].

٣ - ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير: فأنبأهم بها فلما أنبأهم؛ حذف لفهم المعنى.

٤ - ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور، ولو لم يغلّب لقال ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ﴾ أو عرضهن.

٥ - إبراز الفعل في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثم قال ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.

٦ - تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ«الطباق» وذلك في كلمتي ﴿تُبۡدُونَ﴾ و﴿تَكۡتُمُونَ﴾.

الفوَائِد: الأولى: قال بعض العلماء: في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض، تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها[٢].

الثانية: الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد - لا لافتقار الله - وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة، ولا بواسطة مَلَك، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

الثالثة: قال الحافظ ابن كثير: وقول الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ الآية. يس هذا على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض؟[٣]

وقال في «التسهيل»: وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك، وقيل: كان في الأرض جن فأفسدوا، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، فقاس الملائكة بني آدم عليهم[٤].

الرابعة: سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرسٌ لم أشهده؟ قال: ثم قرأتُ قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم[٥].

---

(١) أفاده أبو السعود.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢١٧) تعليقًا على ما رُوِيَ عن السُّدِّي أن الله ـ اسْتَشَارَ الْمَلَائِكَةَ فِي خَلْقِ آدَمَ. قَالَ: «وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ إِنْ لَمْ تَرْجِعْ إِلَى مَعْنَى الْإِخْبَارِ فَفِيهَا تَسَاهُلٌ».

وقال الشيخ عبد العزيز الراجحي في «تفسير سورة البقرة»: «هذه الاستشارة لا محل لها هنا، ولا وجه لها، لكن يحمل على أن المراد أخبرهم».

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٩٤٩.

(٤) «التسهيل لابن جزي» ١/ ٤٣.

(٥) «محاسن التأويل» ٢/ ١٠٤.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

المناسبة: أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصّ آدم عليه السلام بالخلافة، كما خصّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلًا في أصل البشرية آدم عليه السلام.

اللغة: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ أصل السجود: الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم، وهو في اللغة: التذلل والخضوع، وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض ﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي، وقيل: إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع، والإباء: الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبار: التكبر والتعاظم في النفس ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا كثيرًا لا عناء فيه، والرغد: سعة العيش، يقال: رَغِد عيش القوم إذا كانوا في رزقٍ واسع قَالَ الشَّاعِرُ:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا ... يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدْ

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال: زلت قدمه أي: زلقت، ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازًا يقال: زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه، وأزله غيره: إذا سبّب له ذلك[1] ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ التلقي في الأصل: الاستقبال تقول: خرجنا نتلقى الحجيج، أي: نستقبلهم، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول: تلقيت رسالة من فلان، أي: أخذتها وقبلتها ﴿فَتَابَ﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع، وإذا عديت بـ (عن) كان معناها الرجوع عن المعصية، وإذا عديت بـ (على) كان معناها قبول التوبة.

التفسير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أي سجدوا جميعًا له غير إبليس ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

(١) «مختصر «الطبري»» ١/ ٤٢.

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلًا رغدًا واسعًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة. قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي أوقعهما في الزَّلَّة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائدًا إلى الشجرة، أما إذا كان عائدًا إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة[1] ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدوّ لكم فكونوا أعداء له كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي استقبل آدم دعوات من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسّرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية[2] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة للعباد ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنَّ إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي رسول أبعثه لكم، وكتاب أنزله عليكم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي هم مخلدون في الجحيم. أعاذنا الله منها.

البَلاَغة: أولًا: صيغة الجمع ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ للتعظيم، وهي معطوفة على قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وفيه إلتفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة.

ثانيًا: أفادت الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ أنهم سارعوا في الإمتثال ولم يتثبطوا فيه، وفي الآية إيجاز بالحذف، أي: فسجدوا له وكذلك ﴿أَبَىٰ﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود.

ثالثًا: قوله ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذ النهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله: تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

رابعًا: التعبير بقوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من

---

(١) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في «تفسير الجلالين»، والأول اختيار «الطبري».

(٢) (ش): وتمامها: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

النعيم أو الجنة، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبّر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه.

خامسًا: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة واسع الرحمة.

الفوَائِد: الأولى: كيف يصح السجود لغير الله؟ والجواب: أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاةٍ وعبادة، قال الزمخشري: السجود لله تعالى على سبيل العبادة، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم، ويعقوب وأبناؤه ليوسف[1].

الثانية: قال بعض العارفين: سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجناية، ولا يحُط عن رتبة الولاية، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس، ولم تسلبه رتبة الخلافة، بل أجزل الله له في العطية فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢] وقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ... جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعِ[2]

الثالثة: هل كان إبليس من الملائكة؟ الجواب: اختلف المفسرون على قولين: ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وقال آخرون: الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري، قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية:

١ - الملائكة منزهون عن المعصية ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التحريم: ٦] وإبليس قد عصى أمر ربه.

٢- الملائكة خلقت من نور وإبليس خلق من نار فطبيعتهما مختلفة.

٣ - الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠] ؟

٤ - النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ﴾ [الآية: ٥٠] وكفى به حجة وبرهانًا[3].

---

(١) «الكشاف» ١/ ٩٥ .

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٤١ .

(ش): كيف يُستَدَلُّ بقصة آدم على أن المعاصي لا تؤثر في الولاية؟ وقد قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] إن آدم عليه السلام قد تاب من معصيته والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. إن كلام المؤلف قد يُفهَم منه أن الولي تسقط عنه التكاليف.

(٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا «النبوة والأنبياء».

قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾

المنَاسَبَة: من بداية هذه الآية إلى الآية (١٤٢) ورد الكلام عن بني إسرائيل، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزءٍ كامل، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبثٍ وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لما دعا البشر إلى عبادته وتوحيده، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده، ثم ذكّرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام، دعا بني إسرائيل خصوصًا - وهم اليهود - إلى الإيمان بخاتم الرسل وتصديقه فيما جاء به عن الله، لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، وقد تفنّن في مخاطبتهم فتارة دعاهم بالملاطفة، وتارة بالتخويف، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل.

اللغَة: اسم أعجمي ومعناه: عبد الله وهو اسم ﴿يَعۡقُوبَ﴾ عليه السلام، وقد صرَّح به في سورة آل عمران ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣] الآية ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ الوفاء: الإتيان بالشيء على التمام والكمال، يقال أوفى ووفّى أي أداه وافيًا تامًّا. ﴿تَلۡبِسُواْ﴾ اللَّبْس: الخلط تقول العرب: لَبَسْتُ الشيء بالشيء خلطته، والتبس به إختلطَ، قال تعالى ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] وفي «المصباح»: لَبِسَ الثوب من باب تعب لُبْسًا بضم اللام، ولَبَسْتُ عليه الأمر لَبْسًا من باب ضرب خلطته، والتبس الأمر: أشكل. ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مشتقة من زكاه الزرع يزكو أي: نما لأن إخراجها يجلب البركة، أي هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٦].

التفسير: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ أي أدّوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ من القرآن العظيم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ أي لا تستبدلوا

بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي خافون دون غيري ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة، وصلوا مع المصلين بالجماعة، أو مع أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

البَلاَغة: أولًا: في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ إشارة إلى عظم قدرها، وسعة برّها، وحسن موقعها لأن الإضافة تفيد التشريف كقوله: «بَيتُ الله» و ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ثانيًا: قوله ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾ الشراء هنا ليس حقيقيًّا بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦].

ثالثًا: تكرير الحق في قوله: ﴿تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ وقوله: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا الإطناب أضعف من سواه.

رابعًا: قوله ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء، أي: صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة ففيه مجاز مرسل.

خامسًا: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ و ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ يفيد الاختصاص.

فَائِدَة: قال بعض العارفين: عبيد النّعم كثيرون، وعبيد المُنْعِم قليلون، فالله تعالى ذكّر بني إسرائيل بنعمه عليهم، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكّرهم بالمُنعِم فقال ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢] ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين.

قال الله تعالى:

أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

اللغَة: ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾ البِرُّ: سعة الخير والمعروف، ومنه البرُّ والبرِّيَّة للسعة، وهو اسم جامع لأعمال الخير، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما وفي الحديث «البرُّ لا يبلى والذنب لا ينسى»[1] ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾: تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧] وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥]

(١) (ش): أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٩) وابن الجوزي في «ذم الهوى» وضعفه الألباني.

﴿نَتْلُونَ﴾ : تقرءون وتدرسون ﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الخاشع: المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج: الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، وخشعت الأصوات: سكنت[١] ﴿يَظُنُّونَ﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك، وهو من الأضداد قال أبو عُبيدة: العرب تقول لليقين ظنٌّ[٢]، وللشك ظن وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع ضد الوتر، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة، فهي إذًا إظهارٌ لمنزلة الشفيع عند المشفّع ﴿عَدْلٌ﴾ بفتح العين فداء وبكسرها معناه: المِثْل يقال: عِدْل وعديل للذي يماثلك.

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات ذمٌّ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه.

سَبَبُ النّزول: نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا: اثبتوا على دين محمد فإنه حق، فكانوا يأمرون الناس بالإيمان ولا يفعلونه[٣].

التفسير: يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أي أتدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي حال كونكم تقرءون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه الصلاة والسلام ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي شاقةٌ وثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ أي يعتقدون اعتقادًا جازمًا لا يخالجه شك ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي معادهم إليه يوم الدين. ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي فضلت آباءكم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعلهم سادة وملوكًا،

---

(١) «القرطبي» ١/ ٣٧٤ .

(٢) «مجاز القرآن» ص ٣٩ .

(٣) الصاوي ١/ ٢٦ و«القرطبي» ١/ ٣٦٥ . (ش): موضوع ذكره الواحدي -معلقًا- في «أسباب النزول».

وتفضيل الآباء شرفٌ للأبناء ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئًا من الحقوق ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبدًا ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

البلاغة: أولًا: ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع.

ثانيًا: أتى بالمضارع ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث، وعبّر عن ترك فعلهم بالنسيان ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال، وعلقه بالأنفس توكيدًا للمبالغة في الغفلة المفرطة، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من التبكيت والتقريع والتوبيخ.

ثالثًا: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، فلما قال ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠] عمَّ جميع النعم فلما عطف ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ﴾ كان من باب عطف الخاص على العام.

رابعًا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ التنكير للتهويل أي يومًا شديد الهول، وتنكير النفس ﴿نَّفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ﴾ ليفيد العموم والإقناط الكلي.

الفوَائِدَ: الفائدة الأولى: قال «القرطبي»: إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهًا بذكرها وقد كان عليه الصلاة والسلام إِذَا حَزَبَهُ (أغمّه) أمرٌ فَزَع إلى الصلاة[1]، وكان يقول: «أرحنا بها يا بلال»[2].

الثانية: قال علي كرم الله وجهه: «قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك» ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قَالَ الشَّاعِرُ:

فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وقال أبو العتاهية:

وَصَفْتَ التُّقَى حَتَّى كَأَنَّك ذُو تُقَى ... وَرِيحُ الْخَطَايَا مِن ثِيَابِك تَسْطَعُ

وقال آخر:

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيلُ

---

(١) (ش): عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى (رواه أبو داود وحسنه الألباني).

(٢) (ش): عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ قَالَ رَجُلٌ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا». (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

المنَاسَبَة: لما قدّم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالًا، بيَّن بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل؛ ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر، فكأنه قال: اذكروا نعمتي، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر. . إلى آخره. وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه.

اللغة: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل «آل» أهل ولذلك يصغّر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفًا، وخُصَّ استعماله بأولي الخَطَر والشأن كالملوك وأشباههم، فلا يقال آل الإسكاف والحجام، ﴿فِرْعَوْنَ﴾ علمٌ لمن ملك العمالقة كقيصر لملك الروم وكسرى ملك الفرس[1]، ولِعُتُوِّ الفراعنة اشتقوا (تَفَرْعَنَ) إذا عتا وتجبر[2] ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال «الطبري»: يوردونكم ويذيقونكم. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بَلَآءٌ﴾ اختبار ومحنة، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿فَرَقْنَا﴾ الفرق: الفصل والتمييز ومنه ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بَارِئِكُمْ﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق، والبرية: الخلق.

التفسير: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٥٨): «وَفِرْعَوْنُ عَلَمٌ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ، كَافِرًا مِنَ الْعَمَالِيقِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّ قَيْصَرَ عَلَمٌ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا، وَكِسْرَى لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ، وتُبَّع لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا، وَالنَّجَاشِيُّ لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ».

(٢) «الكشاف» ١/ ١٠٢.

عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أي اذكروا أيضًا إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي أنجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي عبدتم العجل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ أي واذكروا نعمتي أيضًا حين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام.

ثم بيَّنَ تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي توبوا إلى مَن خَلَقَكم بريئًا[1] من العيب والنقصان[2] ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل البريءُ منكم المجرم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي القتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي قبل توبتكم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة.

البَلاَغَة: أولًا: قال ابن جزي: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يلزمونهم به وهو استعارة من السَّوْم في البيع وفسَّرَ سوء العذاب بقوله ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ولذلك لم يعطفه هنا.

ثانيًا: التنكير في كل من ﴿بَلَآءٌ﴾ و ﴿عَظِيمٌ﴾ للتفخيم والتهويل.

ثالثًا: صيغة المفاعلة في قوله ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾.

رابعًا: قال أبو السعود: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ التعرض بذكر البارئ للإشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم، الذي خلقهم بلطيف حكمته، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة[3].

---

(١) (ش): الصواب «بَريئين» أو بُرَآء.

(٢) (ش): الخالق مَن يُوجد الشيء على غير مثال سابق، والبارئ من يوجد الشيء بريئًا من العيب.

(٣) أبو السعود ١/ ٨١.

الفوَائِد: الأولى: العطف في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضًا، وحسن العطف لكون معناه أنه آتاه جامعًا بين كونه كتابًا منزلًا وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل[١].

الثانية: سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأنَّ نارًا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر، وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملكك على يده، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل.

الثالثة: قال القشيري: من صبر في الله على قضاء الله، عوّضه الله صحبة أوليائه، هؤلاء بنو إسرائيل، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه، فجعل منهم أنبياء، وجعل منهم ملوكًا، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين[٢].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

المنَاسَبَة: بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم، بيَّن لونًا من ألوان طغيانهم وجحودهم، وتبديلهم لأوامر الله، وهم مع الكفر والعصيان، يعاملون باللطف والإحسان، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم! قال «الطبري»: لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالًا يعتذرون إليه من عبادتهم العجل، فاختار موسى سبعين رجلًا من خيارهم كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال لهم: صوموا وتطهروا وطهّروا ثيابكم ففعلوا، وخرج بهم إلى «طور سيناء» فقالوا لموسى: اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[٣].

---

(١) قاله الزجاج واختاره الزمخشري.

(٢) «البحر المحيط» ١/ ١٩٤ .

(٣) انظر «مختصر ابن كثير» ١/ ٦٦ .

اللغَة: ﴿جَهۡرَةً﴾ علانية، وأصل الجهر: الظهور، ومن؛ الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها، تقول: رأيت الأمير جهارًا وجهرة أي غير مستتر بشيء، وقال ابن عباس: جهرةً عيانًا. ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بَعَثۡنَٰكُم﴾ أحييناكم. قال «الطبري»: وأصل البعث: إثارة الشيء من محله ﴿ٱلۡغَمَامَ﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزنًا ومعنى، لأنها تغم السماء أي تسترها، وكل مغطّى فهو مغموم، وغُمَّ الهلال: إذا غطّاه الغيم فلم ير ﴿حِطَّةٞ﴾: مصدر من حطَّ عنا ذنوبنا[1]، وهي كلمة استغفار ومعناها: اغفر خطايانا. ﴿رِجۡزٗا﴾ عذابًا ومنه ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] أي: العذاب! ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن الطاعة وقد تقدم.

التفسير: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدّق لك بأنَّ ما نسمعه كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ أي: حتى نرى الله علانية ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي أرسل الله عليهم نارًا من السماء فأحرقهم ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ أي ما حلّ بكم. ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يومًا وليلة، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت.

ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] فعُوقِبُوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظُّلَّة ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب، والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه[2]، والسلوى طير يشبه السُّمَانَى لذيذ الطعم[3] ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي وقلنا لهم: كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي إنهم كفروا هذه النعم الجليلة، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي واذكروا أيضًا نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه، ادخلوا بيت المقدس ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ أي كلوا منها أكلًا واسعًا هنيئًا ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ

(١) «مجاز القرآن» ١/ ٤١.
(٢) هو قول الربيع بن أنس.
(٣) قول جمهور المفسرين.

سُجَّدًا﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكرًا على خلاصكم من التيه ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي قولوا يا ربنا: حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفّر سيئاتكم ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي نَزيد من أحسن إحسانًا، بالثواب العظيم، والأجر الجزيل. ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي غيَّر الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني «أدبارهم» وقالوا على سبيل الاستهزاء: «حبة في شعيرة» وسخروا من أوامر الله ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أنزلنا عليهم طاعونًا وبلاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفًا.

البَلاغَة: أولًا: إنما قيَّد البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم.

ثانيًا: في الآية إيجاز بالحذف في قوله: ﴿كُلُواْ﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظَلَمُونَا﴾ و ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر[1].

ثالثًا: وضع الظاهر مكان الضمير في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولم يقل «فأنزلنا عليهم» لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريع، وتنكير ﴿رِجْزًا﴾ للتهويل والتفخيم[2].

تنبيه: قال الراغب: تخصيص قوله ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هو أن العذاب ضَرْبان[3]: ضَرْبٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق، وضَربٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

قال الله تعالى:

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

(١) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٥٧ .

(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٨٣ .

(٣) (ش): ضَرْبٌ: نوع.

(٤) «محاسن التأويل» ٢/ ١٣٥ .

سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

المناسَبَة: لا تزال الآيات تعدّد النعم على بني إسرائيل، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه، وعطشوا عطشًا شديدًا كادوا يهلكون معه، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا.

اللغَة: ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين للطلب مثل: استنصر واستخبر قال أبو حيان: الإستسقاء: طلب الماء عند عدمه أو قلته، ومفعوله محذوف، أي: استسقى موسى ربّه[1]. ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ الانفجار: الانشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ جهة وموضع الشرب ﴿تَعْثَوْا۟﴾ العيث: شدة الفساد، قال: عَثِيَ يعثَى: وعثَا يعثو إذا أفسد فهو عاثٍ[2]، قال «الطبري»: معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿وَفُومِهَا﴾ الفوم: الثوم وقيل: الحنطة ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الاستبدال: ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أَدْنَىٰ﴾ أخسَّ وأحقر يقال: رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفاقة[3] والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿وَبَآءُو﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي: ولا يقال: باء إلا بشرّ ﴿يَعْتَدُونَ﴾ الاعتداء: تجاوز الحد في كل شيء واشتهر في الظلم والمعاصي.

التفسير: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ أي اضرب أيّ حجر كان؛ يتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عينًا بقدر قبائلهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي قلنا لهم: كلوا من المنّ والسلوى، واشربوا من هذا الماء، من غير كدّ منكم ولا تعب، بل هو من خالص إنعام الله ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) «البحر المحيط» ١/ ٢٢٦ .

(٢) كذا في «المصباح».

(٣) (ش): فاقة: فَقْر؛ حاجة؛ ضيق الحال.

مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المن والسلوى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ أي على نوع واحدٍ من الطعام وهو المنُّ والسلوى ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المنَّ والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ من خضرتها كالنَّعْناع والكَرَفْس والكُرَّاث ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ يعني القثَّة التي تشبه الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي الثوم ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي العدس والبصل المعروفين ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي قال لهم موسى منكرًا عليهم: ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المنّ والسلوى؟ ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي ادخلوا مصرًا من الأمصار وبلدًا من البلدان أيًّا كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء. ثم قال تعالى منبهًا على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصَّغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحودًا واستكبارًا، وقتلهم رسل الله ظلمًا وعدوانًا ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم عَلى أحكام الله. ثمَّ دعا تعالى أصحاب الملل والنحل «المؤمنين، واليهود، والنصارى، والصابئين» إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ اليهود أتباع موسى ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ أتباع عيسى ﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيمانًا صادقًا فصدَّق بالله، وأيقن بالآخرة ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة، حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب[1].

البَلاَغَة: أولًا: في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ تعظيمٌ للمنَّة والإنعام وإيماء إلى أنه رزقٌ من غير تعب ولا مشقة.

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٨٤): «نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَأَطَاعَ، فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ كُلّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ».

ثانيًا: في التصريح بذكر الأرض ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ مبالغةٌ في تقبيح الفساد وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكدة، ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبسٌ أو شك، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة، ويجعله بعيدًا من أن يُغفل عنه أو يُنسى.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سببًا للنبات أُسند إليها.

رابعًا: قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ كناية[1] عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة بمن ضربت عليه كما قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ[2]

خامسًا: تقييد قتل الأنبياء بقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتَّة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه.

الفوَائِد: الأولى: حكى المفسرون أقوالًا كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو؟ وكيف وصفه؟ وقد ضربنا صفحًا عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه «المعجزة» وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء، وهنا تكون المعجزة أوضح، والبرهان أسطع. قال الحسن البصري: لم يأمره أن يضرب حجرًا بعينه قال: وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة[3].

الثانية: فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عينًا؟ فالجواب: أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع، فأكمل الله هذه النعمة بأن عيّن لكل سبط منهم ماءً معينًا على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطًا، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم.

الثالثة: ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿وَفُومِهَا﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾[4] وبدليل اقتران البصل بعده. قال الفخر الرازي: الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة، واستدل «القرطبي» على ذلك بقول حسان:

---

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبّه على ذلك أبو السعود.

(٢) (ش): لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه فأفاد إثباتها له. والقُبَّة: خيمة صغيرة أعلاها مستدير.

(٣) «الكشاف» ١/ ١٠٧ .

(٤) (ش): قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾. أخرجها سعيد بن منصور في سننه (١٩١ - التفسير) وابن أبي داود في المصاحف ص ٥٤ بأسانيد ضعيفة.

وَأَنْتُمْ أُنَاسٌ لِئَامُ الْأُصُولِ طَعَامُكُمُ الْفُومُ وَالْحَوْقَلُ
يَعْنِي الثُّومَ وَالْبَصَلَ (١).

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

المنَاسَبَة: لمّا ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة، أردف ذلك ببيان ما حلَّ بهم من نقم، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله، فقد كفروا النعمة، ونقضوا الميثاق، واعتدوا في السبت فمسخهم الله إلى قردة، وهكذا شأن كل أمةٍ عتت عن أمر ربها وعصت رسله.

اللغَة: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ونحوه، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بحزم وعزم ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ التولي: الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ جمع خاسئ وهو الذليل المهين قال أهل اللغة: الخاسئ: الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له: اخسأ أي تباعد وانطرد صاغرًا. ﴿نَكَٰلًا﴾ النكال: العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكالٌ حتى تكون زاجرة رادعة.

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجد وعزيمة ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بقبول التوبة ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالعفو عن الزَّلَّة ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشرًا مع الذلة والإهانة ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي المسخة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها وعبرة لمن جاء بعدها

(١) «القرطبي» ١/ ٤٢٥ .

ولم يشاهدها[١] ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي عظةً وذكرى لكل عبدٍ صالح متّقٍ لله سبحانه وتعالى.

البَلاغَة: أولًا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول.

ثانيًا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير، وقال بعض المفسرين: هذا أمر تسخيرٍ وتكوين، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنَقْلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة[٢].

ثالثًا: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر.

الفوَائِد: الأولى: قال القفال: إنما قال ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ ولم يقل «مواثيقكم» لأنه أراد ميثاق كل واحدٍ منكم كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي يخرج كل واحدٍ منكم طفلًا[٣].

الثانية: قال بعض أهل اللطائف: كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تخبط في عشواء حالكة الجلباب، وتخطر من غلوائها وعلوّها في حلتي كبر وإعجاب، فلما أُمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبَل فوجدوه أثقل مما كلِّفوه، فهان عليهم حمل التوراة قَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَى اللهِ يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مَنْ أَبَى ... فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِيضُ الصَّوَارِمِ[٤]

الثالثة: إنما خصَّ المتقين بإضافة الموعظة إليهم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) (ش): قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: جعل الله هذه العقوبة ﴿نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم. ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: مَن بعدهم.

ورجَّح الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٩٢-٢٩٣) أن الْمُرَادُ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا فِي الْمَكَانِ، أي لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِنَ الْقُرَى وَمَا خَلْفَهَا مِنَ الْقُرَى. وَرَدَّ على من يَقُولُونَ: الْمُرَادُ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا فِي الزَّمَانِ، بأن هَذَا مُسْتَقِيمٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ عِبْرَةً لَهُمْ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ سَلَفَ قَبْلَهُمْ مِنَ النَّاسِ فَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا الْكَلَامُ أَنْ تُفَسَّرَ الْآيَةُ بِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ سَبَقَهُمْ؟ هَذَا لَعَلَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ لَا يَقُولُهُ بَعْدَ تَصَوُّرِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا فِي الْمَكَانِ، وَهُوَ مَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى.

وقال: «وَأَرْجَحُ الْأَقْوَالِ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا: مَنْ بِحَضْرَتِهَا مِنَ الْقُرَى الَّتِي يَبْلُغُهُمْ خَبَرُهَا، وَمَا حَلَّ بِهَا، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِمَنْ فِي زَمَانِهِمْ، وَعِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾».

(٢) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٦٣ .

(٣) «البحر المحيط» ١/ ٢٤٣ .

(٤) «البحر المحيط» ١/ ٢٤٥ .

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم، من نقض المواثيق، واعتدائهم في السبت، وتمردهم على الله عَزَّ وَجَلَّ في تطبيق شريعته المنزلة، أعقبه بذكر نوع آخر من مساويهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم، وجفاؤهم في مخاطبة نبيهم الكريم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوي.

اللغة: ﴿هُزُوًا﴾ الهزؤ: السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واوًا ﴿هُزُوًا﴾ مثل ﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] والمعنى على حذف مضاف أي أتخذنا موضع هزؤ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءًا بنا ﴿فَارِضٌ﴾ الفارض: الفتية التي لم تلد من الصغر ولم يلقحها الفحل لصغرها قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْطَيْتَ ضَيْفَكَ فَارِضًا ... تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ
وَلَمْ تُعْطِهِ بِكْرًا فَيَرْضَى سَمِينَهُ ... فَكَيْفَ تُجَازَى بِالْمَوَدَّةِ وَالْفَضْلِ[1]

﴿عَوَانٌ﴾ وسط ليست بمُسِنَّة ولا صغيرة، وقيل: هي التي ولدت بطنًا أو بطنين، ﴿فَاقِعٌ﴾ الفقوع: شدة الصفرة يقال: أصفر فاقع، أي: شديد الصفرة كما يقال: أحمر قانٍ أي شديد الحمرة قال «الطبري»: وهو نظير النصوع في البياض ﴿ذَلُولٌ﴾ أي مذللة للعمل يقال: دابة ذلول أي ريّضة

(١) (ش): الْبِكْرُ: الصَّغِيرَةُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ مِنَ الصِّغَرِ. وَقِيلَ: الَّتِي وَلَدَتْ وَلَدًا وَاحِدًا.
(لَعَمْرِي): كلام أهل العلم أن هذه الكلمة ليست يمينًا، بل تُذكَر لتأكيد مضمون الكلام فقط؛ لأنها أقوى من سائر المؤكِّدات، وأسْلَمُ من التأكيد بالقسم بالله لوجوب البر به. [انظر: المدونة الكبرى رواية الإمام سحنون ابن سعيد التنوخي عن عبد الرحمن بن القاسم وغيره عن الإمام مالك (٢/ ٣٣٨)].

زالت صعوبتها فقوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ أي لم تذلّل لإثارة الأرض، أي: لحرثها ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من السلامة، أي: خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شِيَةَ﴾ الشِّية: اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال «الطبري»: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾ أي تدافعتم واختلفتم وتنازعتم وأصلها تدارأتم أدغمت التاء في الدال، وأُتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالسكن فصار أدّارأتم، ومعنى الدرء: الدفع لأن كلًّا من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع، وفي الحديث «ادرءوا الحدود بالشبهات»[1] ﴿قَسَتۡ﴾ القسوة: الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يَشَّقَّقُ﴾ التشقق: التصدع بطولٍ أو عرض ﴿يَهۡبِطُ﴾ الهبوط: النزول من أعلى إلى أسفل[2].

«معجزة إحياء الميت وقصة البقرة»

ذكر القصة: روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال: «كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلًا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى: علام يقتل بعضنا بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ قال: ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شدّدوا فشدَّد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا، فاشتروها بملء جلدها ذهبًا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ قال: هذا وأشار إلى ابن أخيه ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا فلم يورث قاتل بعد»[3].

وفي رواية «فأخذوا الغلام فقتلوه».

التفسير: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم: أتهزأ بنا يا موسى ﴿قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين﴾ أي ألتجئ إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها؟ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم ﴿قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا﴾ أي ما لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة، حسن منظرها تسر كل

---

(١) (ش): رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وضعفه الألباني.

(٢) «مختصر «الطبري» ١/ ٤٧ .

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٧٦.

من رآها. ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بيانًا لوصفها، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عوانًا وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ ﴿إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ أي سنتهدي إلى معرفتها إن شاء الله، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبدًا كما ثبت في الحديث[1] ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ ﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، ولا لسقاية الزرع ﴿مُّسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي الآن بينتها لنا بيانًا شافيًا لا غموض فيه ولا لبس. قال تعالى إخبارًا عنهم ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة، فقال ﴿ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفسًا ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا ﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحيي الموتى من قبورهم ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير.

ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقًا من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي ومنها ما يتفتت ويتردّى من رءوس الجبال من خشية الله، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي إنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية، وسيجازيهم عليها يوم القيامة، وفي هذا وعيد تهديد.

البَلاغَة: أولًا: قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير: فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها، فلما اهتدوا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف.

---

(١) (ش): الحديث لم يثبت.

رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لَمَا أُعْطُوا، وَلَكِنِ اسْتَثْنَوْا» (رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ٢٢٣)، وضعفه الألباني). والاستثناء: قَوْلُ إِن شَاءَ اللهُ.

ثانيًا: قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله: ﴿فَٱدَّٰرَءۡتُمۡ﴾ وقوله: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسنًا، وفائدة الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة.

ثالثًا: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبُوُّها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود: القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لِنُبُوِّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور[1].

رابعًا: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلًا مجملًا) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف.

خامسًا: ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي ماء الأنهار، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحالِّ فيه كالماء والقرينة ظاهرة؛ لأن التفجر إنما يكون للماء، ويسمى هذا مجازًا مرسلًا.

الفوَائِد: الفائدة الأولى: نبه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ على أن الإستهزاء بأمرٍ من أمور الدين جهل كبير، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح.

الثانية: الخطاب في قوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم، راضين بفعلهم، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين.

الثالثة: هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة، وإن وردت في الذكر بعده، والسرُّ في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، التكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة ابن السعود: وإنما غُيِّر الترتيب لتكرار التوبيخ وتثنية التقريع، فإن كل واحدٍ من قتل النفس المحرمة، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتئات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم[2].

الرابعة: ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع: أ - في قوله ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٦] ب - وفي هذه القصة ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَا﴾ ج - وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ [البقرة:٢٤٣] د - وفي قصة عزير ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩] هـ- وفي قصة إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي

(١) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٩٠ . (ش): النُبُوُّ: الإستعصاء وعدم الانقياد. القوارع: المصائب.
(٢) «إرشاد العقل السليم» ١/ ٩٠ .

كَيْفَ تُحْيِي الموتى﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

الخامسة: ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بمعنى «بَلْ» أي بل أشد قسوة كقوله: تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] وقال بعضهم: هي للترديد، أو التخيير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد، ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال: هي أقسى من الحجارة.

السادسة: ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله: تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] وقال آخرون: بل هو من باب المجاز كقول القائل: قال الحائط للمسمار: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني والله أعلم؟[1].

قال الله تعالى:

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

المناسَبَة: لما ذكر تعالى عناد اليهود، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى، ومجادلتهم للأنبياء الكرام، وعدم الانقياد والإذعان، عقَّب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحريف كلام الله تعالى، وادعائهم بأنهم أحباب الله، وأن النار لن تمسَّهم إلا بضعة أيام قليلة، إلى آخر ما هم عليه من أماني كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال، وجبلوا على العناد والمكابرة.

اللغَة: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الطمع: تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقًا قويًّا، فإذا اشتد فهو طمع، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿فَرِيقٌ﴾ الفريق: الجماعة وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ التحريف: التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عَقَلُوهُ﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿أُمِّيُّونَ﴾ جمع أمي وهو الذي

(١) أفاده العلامة ابن كثير .

لا يحسن القراءة والكتابة، سمي بذلك نسبة إلى الأم، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أَمَانِيَّ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه، أو يقدّر في نفسه من مُنى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لإنسان: «أهذا شيء رأيته أم تمنيته» أي اختلقته، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان:

تَـمَـنَّـى كِـتَـابَ اللهِ أَوَّلَ لَـيْـلِـهِ (١)

﴿فَوَيْلٌ﴾ الويل: الهلاك والدمار وقيل: الفضيحة والخزي، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي: هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين:١] وقال سيبويه: ويلٌ لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها.

سَبَبُ النّزول: ١ - نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ (٢) الآية.

٢ - وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذب بكل ألف سنة يومًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (٣).

التفسير: يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بينًا جليًّا ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يرتكبون جريمة، أي إنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأ أو نسيان ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق، وأن محمدًا هو الرسول المبشَّر به ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ أي أفليست لكم عقول تمنعكم من

---

(١) **(ش):** قال حسان بن ثابت رضي الله عنه لما قتل القتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يذكر الله ويقرأ القرآن: تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ (تَمَنَّى كِتَابَ الله) أي: تلا كتاب الله من (أَوَّلَ لَيْلِهِ)، حتى إذا بلغ آخر الليل قام عليه القتلة فقتلوه، فتلقى حمام قدره رضي الله عنه .

(٢) «البحر المحيط» ١/ ٢٧١ . **(ش):** هكذا ذكره أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» بدون إسناد.

(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٢ . **(ش):** أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»، وابن أبي حاتم في «التفسير»، وابن جرير في «جامع البيان»، والواحدي في «أسباب النزول»، وسنده ضعيف؛ فيه محمد -شيخ ابن إسحاق- مجهول.

أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم. قال تعالى ردًا عليهم وتوبيخًا: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان!

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرّفوا وبدّلوا، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبّه أنهم في الضلال سواء فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوامّ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي إلاَّ ما هم عليه من الأماني التي منّاهم بها أحبارهم، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء.

ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلّين، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة، وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي يقولون لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذبًا وزورًا ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي لن ندخل النار إلا أيامًا قلائل، هي مدة عبادة العجل، أو سبعة أيام فقط ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ: هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أم تكذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله، والكذب والبهتان عليه جل وعلا.

ثم بيَّن تعالى كذب اليهود، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها، كما يخلد الكافر الذي عمل الكبائر، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي غمرته من جميع جوانبه، وسدّت عليه مسالك النجاة، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبدًا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل الصالح فلا تمسهم النار، بل هم في روضات الجنات يحبرون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبدًا، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

البَلاَغَة: أولًا: قوله: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم، فتحريفهم للتوراة كان عن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل.

ثانيًا: قوله ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز، وللتأكيد بأن الكتابة باشروها بأنفسهم كما يقول القائل: كتبته بيميني، وسمعته بأذني.

ثالثًا: قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ فيه من المحسّنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي «يسرون» و «يعلنون» وهو من نوع طباق الإيجاب.

رابعًا: التكرير في قوله ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ للتوبيخ والتقريع ولبيان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى.

خامسًا: قوله ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبّه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط بهم إحاطة السِّوار بالمِعْصَم، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات[1].

الفَوائِد: الفائدة الأولى: تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلًا فاسدًا، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالتأويل، وبالتغيير، كما فعلوا في صفته عليه السلام قال العلامة أبو السعود: روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها «حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العينين، أبيض ربعة» فغيروها وكتبوا مكانها «طوال، أزرق، سبط الشعر» فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفًا لما في التوراة فيكذبونه[2].

الثانية: التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦] أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الثالثة: روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شَاةٌ

(١) انظر «تلخيص البيان» ١/ ٨.
(٢) «تفسير أبي السعود» ١/ ٩٤.

فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «اجْمَعُوا لِيَّ مَنْ كَانَ مِن اليهُودَ هُنَا »فَقَالَ لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلاَنٌ، قَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ»، فقَالُوا: صَدَقْتَ، وبررت ثم قال لهم: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكم عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، فقَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ لهم رسول الله ﷺ: «اخْسَئُوا وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لهم رسول الله ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، فقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، فقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ منك، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ»(١).

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

المناسبة: لا تزال الآيات الكريمة تعدّد جرائم اليهود، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة، وقتلوا النفس التي حرّم الله، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار.

اللغة: ﴿مِيثَٰقَ﴾ الميثاق: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكدًا سمي عهدًا ﴿حُسْنًا﴾ الحُسْنُ: اسم عام جامعٌ لمعاني الخير، ومنه لين القول، والأدب الجميل، والخلق الكريم، وضده القُبْح والمعنى: قولوا قولًا حُسْنًا فهو صفة لمصدر محذوف ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ التولّي عن الشيء: الإعراضُ عنه ورفضُه وعدم قبوله كقوله: ﴿فأعرض عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] وفرّق بعضهم بين التولي والإعراض فقال: التولي بالجسم، والإعراضُ

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٢ . **(ش)**: الرواية التي في الأصل نقلها المؤلف من «تفسير ابن كثير» وهي ليست رواية البخاري بل رواية الْحَافِظِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَرْدَوَيْهِ، وقد ذكرها الحافظ ابن كثير ثم قال: «وَرَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، بنحوه». فذكرْتُ هنا نَصَّ رواية البخاري بدلًا منها.

بالقلب[1] ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين، كأن المتظاهرين يسنُد كل واحد منهما ظهره إلى الآخر، والظهير: المعين ﴿ٱلْإِثْمِ﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خِزْىٌ﴾ الخزي: الهوان والمقت والعقوبة.

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحسانًا ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ أي وأن يحسنوا أيضًا إلى الأقرباء، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قولًا حسنًا بخفض الجناح، ولين الجانب، مع الكلام الطيّب ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي صلوا وزكّوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين «الصلاة، والزكاة» لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي ثم رفضتم أنتم وأسلافكم الميثاق رفضًا باتًا، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلاّ قليلًا منكم ثبتوا عليه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي واذكروا أيضًا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضًا ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار، والإجلاء عن الأوطان ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي ثمّ اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي ثم نقضتم أيضًا الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به، فقتلتم إخوانكم في الدين، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفات إلى العهد الوثيق ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقّب تعالى ذلك بقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى

(١) «البحر المحيط» ١/ ٢٨١ .

عذاب أشدّ منه، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله! ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي لا يُفتَّر عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم.

تنبيه: كانت (بنو قريظة) و(بنو النضير) من اليهود، فحالفت بنو قريظة الأوس، وبنو النضير الخزرج، فكانت الحرب إذا نشِبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افْتكُوا الأسارى من الفريق المغلوب عملًا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍ﴾[1].

البَلاَغَة: ١ - ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خبرٌ في معنى النهي، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهيَّ حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي[2].

٢ - ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولًا حسنًا أو ذا حسنٍ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون: هو عدل.

٣ - التنكير في قوله ﴿خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ للتفخيم والتهويل.

٤ - ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ عبّر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة.

٥ - ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي.

الفَوائِد: الفائدة الأولى: جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان، ثم اليتامى لقلة حيلتهم، ثمّ المساكين لضعفهم ومسكنتهم.

الثانية: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ ولم يقل: وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤمنين حسنًا ليدل على أنّ الأمر بالإحسان عامٌّ لجميع الناس، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وفي هذا حضٌّ على

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ٨٥ .

(٢) «تفسير أبي السعود» ١/ ٩٦ .

مكارم الأخلاق، بلين الكلام، وبسط الوجه، والأدب الجميل، والخلق الكريم قال أحد الأدباء.

بُنَيَّ إِنَّ الْبِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ ... وَجْهٌ طَلِيقٌ وَلِسَانٌ لَيِّنُ

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

اللغة: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال: قَفَاه إذا أتبعه، وقفَّاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل عليه السلام، والقدسُ: الطهر والبركة ﴿تَهْوَىٰٓ﴾ تحب من هَوي إذا أحب ومصدره الهوى ﴿غُلْفٌۢ﴾ جمع أغلف، والغلاف: الغطاء، يقال سيف أغلف إذا كان في غلافه، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز، مستعار من الأغلف الذي لم يختن[1] ﴿لَّعَنَهُمُ﴾ أصل اللعن في كلام العرب: الطردُ والإبعاد يقال: ذئب لعين أي مطرود مبعد والمراد: أقصاهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرة ﴿بِئْسَمَا﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي، و«بئس» فعل للذم، كما أنّ «نِعْم» للمدح ﴿بَغْيًا﴾ البغي: الحسد والظلم، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد، قاله الأصمعي[2] ﴿فَبَآءُو﴾ رجعوا وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مُّهِينٌ﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل.

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضربٍ من النعم التي أمدّهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة، والنعمة بالكفران والجحود.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ

(١) «الكشاف» ١/ ١٢٢ .

(٢) «البحر المحيط» ١/ ٢٩٨.

بِٱلرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم، وطائفة قتلتموهم. . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبيّن ضَلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد، والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم، قال تعالى ردًّا عليهم ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي فقليلٌ من يؤمن منهم، أو يؤمنون إيمانًا قليلًا وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين، مصدقًا لما في التوراة ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان، الذي نجد نعته في التوراة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم المرسلين ﴿بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بَغْيًا﴾ أي حسدًا وطلبًا لما ليس لهم ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي حسدًا منهم لأجل أن ينزل الله وحيًا من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقوبلوا بالإهانة والصغار ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدّقوه واتبعوه ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقًا لما معهم من كلام الله ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحًا فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلًا مؤمنين؟ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع.

البَلاَغَة: ١ - تقديم المفعول في الموضعين ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ و﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ للاهتمام

وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه.

٢- التعبير بالمضارع ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم، لأن الفعل المضارع - كما هو المألوف في أساليب البلاغة - يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغًا عظيمًا، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم.

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل «عليهم» لِيُشْعِر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم.

٤ - الخبر في قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يراد به التبكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول.

٥ - أسندت الإهانة إلى العذاب فقال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأن الإهانة تحصل بعذابهم، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها.

فَائِدَة: قال الحسن البصري: إنما سمي جبريل «روح القدس» لأن القدس هو الله، وروحه جبريل، فالإضافة للتشريف، قال الرازي: ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الآية: ١٠٢][1] .

قال الله تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

المنَاسَبَة: هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبلُ الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان، فعبدوا العجل من دون الله، وزعموا أنهم أحباب الله، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم، وعادَوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وكفروا بالأنبياء والرسل، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور.

(١) «محاسن التأويل» ٢/ ١٨٦ .

اللغة: ﴿مِيثَٰقَكُمُ﴾ الميثاق: العهد المؤكد بيمين ﴿ٱلطُّورَ﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بعزم وجِدّ ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ أُشرب: سُقي جعلت قلوبهم تشربه، يقال: أُشرب قلبُه حبَّ كذا قال زُهَيْر:

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ دَاخِلٍ ... وَالْحُبُّ تُشْرِبُهُ فُؤَادَكَ دَاءُ[1]

﴿خَالِصَةً﴾ مصدر كالعافية والعاقبةً بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أَحْرَصَ﴾ الحرص: شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث «إحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»[2].

﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ الزحزحة: الإبعادُ والتنحية قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٨٥] أي أُبعد وقَالَ الشَّاعِرُ:

خَلِيلَيَّ مَا بَالُ الدُّجَى لَا يزحزح ... وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ

التفسير: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أَخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي بعزم وحزم وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي خالط حبُّه قلوبهم، وتغلغل في سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى: لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئًا إذا قيس بنعيم الآخرة. ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى رادًّا عليهم تلك الدعوة الكاذبة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أي ولتجدنَّ اليهود أشدّ الناس حرصًا على الحياة، وأحرص من المشركين أنفسهم، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة

(١) «القرطبي» ٢/ ٣١.
(٢) (ش): رواه مسلم.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي وما طول العمر - مهما عمر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي مطّلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدو لله، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وفيه الهداية الكاملة، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله، وعادى على الوجه الأخص «جبريل وميكائيل» فهو كافر عدو لله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لأن الله يبغض من عادى أحدًا من أوليائه، ومن عاداهم عاداه الله، ففيه الوعيد والتهديد الشديد.

سَبَبُ النّزول: روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبيٌّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبُك حتى نتابعك؟ قال: جبريل قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [(١)] الآية.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فيه استعارة مكنية، شبّه حبَّ عبادة العجل بمشروب لذيذ سائغ الشراب، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمه وهو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية، قال في «تلخيص البيان»: «وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبة فمازجها ممازجة المشروب، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ»[(٢)].

٢ - ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكمٌ بهم كقوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم، أفاده الزمخشري.

٣ - التنكير في قوله ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين.

٤ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها اسمية لزيادة التقبيح لأنها تفيد الثبات، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال: ﴿عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بدل (عدوٌ لهم) لتسجيل صفة الكفر عليهم، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين.

٥ - ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ وجاء بعد ذكر الملائكة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام

---

(١) رواه الترمذي وانظر «القرطبي» ٢/ ٣٦ . (ش): صحيح، ورَوَاهُ أيضًا الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ».

(٢) «تلخيص البيان» للشريف الرضى ص ٩ .

للتشريف والتعظيم.

الفوَائِد: الأولى: ليس معنى السمع في قوله ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ إدراك القول فقط، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبرٍ وطاعةٍ والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾.

الثانية: خصّ القلب بالذكر ﴿نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

الثالثة: الحكمة في الإتيان هنا بـ «لن» ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ وفي الجمعة بـ «لا» ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ [الآية: ٧] أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس، فناسب هنا التوكيد بـ «لن» المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل، وأما هناك فاكتفى بالنفي[1].

الرابعة: الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمني الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»[2].

قال الله تعالى:

وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود، من خبث السريرة ونقض العهود، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو «جبريل» الأمين عليه السلام، أعقب ذلك ببيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود، وتكذيب الرسل، واتباع طرق الشعوذة والضلال، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه

(١) الصاوي على الجلالين ١/ ٤٩.

(٢) «القرطبي» ٢/ ٣٢. (ش): رواه البزار وابنُ جرير، وصححه الألباني.

الطريقة، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير، وإلزامهم الإيمان به واتباعه، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

اللغة: ﴿نَبَذَ﴾ النَّبْذُ: الطَّرْحُ وَالْإِلْقَاءُ، ومنه سمي اللقيط منبوذًا لأنه يُنْبَذُ على الطريق قال الشاعر:

إِنَّ الَّـذِيـنَ أَمَـرْتَـهُـمْ أَنْ يَـعْـدِلُـوا نَبَذُوا كِتَابَكَ وَاسْتَحَلُّوا الْمَحْرَمَا[1]

﴿تَتْلُواْ﴾ تحدّث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة، أو من التلاوة بمعنى الإتباع قال «الطبري»: ولقول القائل: «هو يتلو كذا» في كلام العرب معنيان: أحدهما الإتباع كما تقول: تلوت فلانًا إذا مشيت خلفه وتبعتَ أثره، والآخر: القراءة والدراسة كقولك: فلان يتلو القرآن أي يقرؤه[2] ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ قال الجوهري: كلُّ ما لطف مأخذه ودقَّ فهو سحر، وسحره أيضًا بمعنى خدَعه[3] وفي الحديث «إنّ من البيان لسحرًا»[4] ﴿فِتْنَةٌ﴾: الإبتلاء والإختبار ومنه قولهم: فتنتُ الذهب إذا إمتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿خَلَٰقٍ﴾ الخلاق: النصيب قال الزجاج: هو النصيب الوافر من الخير، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ المثوبة: الثواب والجزاء.

التفسير: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالات على نبوتك ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلما أعطوا عهدًا نقضه جماعة منهم؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق، لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي مصدقًا للتوراة وموافقًا لها في أصول الدين ومقررًا لنبوة موسى عليه السلام ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوراة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئًا ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها

---

(١) «القرطبي» ٢/ ٤٠.

(٢) «الطبري» ٢/ ٤٠٧.

(٣) «الصحاح للجوهري».

(٤) (ش): رواه البخاري. و(البيان): الفصاحة.

الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أي وما كان سليمان ساحرًا ولا كفر بتعلمه السحر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي ولكنّ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملَكين وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحانًا للناس ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي إن الملَكَيْن لا يعلمان أحدًا من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نَصِفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء، فلا تستعمِلْه للإضرار ولا تكفر بسببه، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس فقد نجا، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل[1].. قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سببًا في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحدًا إلا إذا شاء الله ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي لأثابهم الله ثوابًا أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار.

سَبَبُ النّزول: لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبيًا!! والله ما كان إلا ساحرًا فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[2].

البَلاَغَة: ١ - ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ التنكير للتفخيم ووصفُ الرسول بأنه آتٍ من عند الله

(١) (ش): لا يجوز تَعَلُّم السحر ليحل به السحر أو لمقاصد أخرى، بل هو من نواقض الإسلام، لأنه لا يمكن تعلمه إلا بالوقوع في الشرك، وذلك بعبادة الشياطين من الذبح لهم، والنذر لهم، ونحو ذلك من أنواع العبادة، والذبح والتقرب إليهم بما يحبون حتى يخدموه بما يحب. ولا يجوز استخدام السحر لأي مقصد من المقاصد، حسنا كان أم سيئًا، لأن السحر من أعظم الموبقات، فلا يجوز تعلمه ولا تعليمه ولا تعاطيه، لأن النبي ﷺ قد نهى عن ذلك وحذر منه أشد التحذير، ورتب عليه أشد أنواع الوعيد وهو الحكم بكفر من يفعل ذلك.

(٢) «زاد المسير» ١/ ١٢٠، و«القرطبي» ٢/ ٤١. (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وسنده ضعيف جدًا.

لإفادة مزيد التعظيم.

٢ - ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثلٌ يُضرب للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب: جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضًا، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية.

٣ - ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة، من أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزّل منزلة الجاهل به، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين.

٤ - ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ جيء بالجملة الاسمية بدل الفعلية للدلالة على الثبوت والاستقرار.

فَائِدَة: الحكمة من تعليم الملكين الناس السحر، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنونًا غريبة من السحر، وربما زعموا أنهم أنبياء، فبعث الله تعالى المَلكين ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة، ويعرفوا أن الذين يدّعون النبوة كذبًا إنما هم سحرة لا أنبياء[1].

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر، الذي يضمرونه للنبيّ ﷺ والمسلمين، من الطعن والحقد والحسد، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفًا للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية.

---

(١) (ش): لم أجد روايات ثابتة تدل على ذلك.

اللغَة: ﴿رَٰعِنَا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمْق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ من النظر والإنتظار تقول: نظرتُ الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ويحب ﴿نَنسَخۡ﴾ النسخ في اللغة: الإبطال والإزالة يقال: نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع: رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿نُنسِهَا﴾ من أنسى الشيءَ جعله منسيًا فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ﴿وَلِيّٖ﴾ الولي: من يتولى أمور الإنسان ومصالحه ﴿نَصِيرٍ﴾ النصير: المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أَمۡ﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله: تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ افتراه﴾ [يونس: ٣٨] أي بل يقولون ﴿يَتَبَدَّلِ﴾ يقال: بدّل وتبدل واستبدل أي جعل شيئًا موضع آخر، وتبدل الكفر بالإيمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق، والسواء من كل شيء: الوسط، والسبيل معناه الطريق ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ العفو: ترك المؤاخذة على الذنب ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ والصفح: ترك التأنيب عنه.

سَبَبُ النّزول: روي أن اليهود قالوا: ألا تعجبون لأمر محمد؟ أمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولًا ويرجع عنه غدًا، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، يناقض بعضه بعضًا فنزلت[1] ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾[2].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا نداء الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه، عذاب أليم موجع ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيء من الخير، بغضًا فيكم وحسدًا لكم ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان. من شاء من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى ردًا على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمحها من قلبك ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل، إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

(١) «الكشاف» ١/ ١٣١. (ش): رواه الواحدي في «أسباب النزول» بدون سند.
(٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا «روائع البيان» ١/ ١٠٠.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد! ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء؟ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ما لكم وليٌّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فتضلوا كما ضلوا ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي يستبدل الضلالة بالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي لو يصيّرونكم كفارًا بعد أن آمنتم ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أي حسدًا منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما «الصلاة والزكاة» وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي ما تتقربوا به إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضًا كان أو تطوعًا تجدوا ثوابه عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين.

البَلاَغَة: ١ - الإضافة في قوله ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للتشريف. وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم.

٢ - تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ للإيذان بفخامة الأمر.

٣ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

٤ - وضع الإسم الجليل موضع الضمير ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس.

٥ - ﴿ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل.

الفوَائِد: الأولى: خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في ثمانية

وثمانين موضعًا من القرآن، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم، ونداء المخاطبين بإسم المؤمنين يذكّرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال.

الثانية: نهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿رَٰعِنَا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدبٍ جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطبته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم.

الثالثة: كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد ابن معاذ سمعها منهم فقال: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنَّ عنقه فقالوا: أولستم تقولونها؟ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ (١).

قال الله تعالى:

وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿١١٥﴾

المناسبة: في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم، ويكفرون بعيسى وبالإنجيل، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقفٌ عليه، فأكذب الله الفريقين، وبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات.

اللغة: ﴿هُودًا﴾ أي يهودًا جمع هائد، والهائد: التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ﴿أَمَانِيُّهُمۡ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه، ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ البرهان: الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين، ﴿أَسۡلَمَ﴾ استسلم وخضع، ﴿خَرَابِهَآ﴾

(١) (ش): عزاه السيوطي في «الباب النقول» لأبي نعيم في «الدلائل» وقال: «هذا السند واه». وفيه أن الصحابي هُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وليس سعد بن معاذ.

الخراب: الهدم والتدمير وهو حسّيٌ كتخريب بيوت الله، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها، ﴿خِزْيٌ﴾ هوانٌ وذلة، ﴿فَثَمَّ﴾ بفتح الثاء أي هناك ظرفٌ للمكان ﴿وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ الوجه: الجهة والمراد بوجه الله: الجهة التي إرتضاها وأمر بالتوجه إليها.

سَبَبُ النّزول: عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ[1]﴾ الآية[2].

التفسير: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ أي قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي وهو مؤمن مصدّقٌ متبعٌ لرسول الله ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعتريهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس النصارى على دين صحيح معتدٍّ به فدينهم باطل ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علمٍ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا: ليس محمد على شيء ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش[3] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلًا عن التجرؤ على تخريبها أو تعطلها ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِى

(١) «مختصر ابن كثير» ١/ ١٠٨.

(٢) (ش): أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» بسند ضعيف.

(٣) (ش): أي كما فعل كفار قريش ببيت الله الحرام.

ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يسع الخلق بالجود والإفضال، عليم بتدبير شئونهم، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم.

البَلاَغَة: ١ - ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة.

٢ - ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ الأمر هنا للتبكيت والتقريع.

٣ - ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه هاهنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته[2].

٤ - ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ العندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافًا إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به.

٥ - ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم أصلًا.

٦ - ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه.

٧ - ﴿فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله.

٨ - ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة فعيل للمبالغة. أي واسع العلم.

فَائِدَة: قال الإمام الفخر: إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقال زيد بن نفيل.

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... له المُزْنُ تَحْمِلُ عَذْبًا زُلَالَا[3]

---

(١) (ش): عَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ، فَلَمْ نَدْرِ أَيْنَ القِبْلَةُ، فَصَلَّى كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى حِيَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ . (رواه الترمذي، وحسّنه الألباني). وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]».

(٢) «تلخيص البيان» ص ١٠.

(٣) التفسير الكبير ٤/ ٤.

(ش): تأويلُ الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفْيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

المناسبة: لمّا ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أنَّ لله ولدا حيث زعم اليهود أن عزيرًا ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع.

اللغة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ سبحان مصدر سبّح بمعنى نزّه ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قَٰنِتُونَ﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بَدِيعُ﴾ البديع: المبدع من الإبداع، والإبداع: اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قَضَىٰٓ﴾ أراد وقدّر ﴿بَشِيرٗا﴾ البشير: المبشّر وهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿وَنَذِيرٗا﴾ النذير: المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ المتأجج من النار ﴿مِلَّتَهُمۡ﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملّة: الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسمًا للشريعة التي أنزلها الله ﴿عَدۡلٞ﴾ فداء.

التفسير: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في دعواهم فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي تقدس وتنزّه عما زعموا تنزهًا بليغًا ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بل للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئًا وجد بلمح البصر، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ المراد بهم جهلة

المشركين وهم كفار قريش ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي تكون برهانًا وحجة على صدق نبوتك، قالوا ذلك استكبارًا وعنادًا ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقوم يطلبون الحق واليقين، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيّرة والدين القويم بشيرًا للمؤمنين بجنات النعيم، ونذيرًا للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي أنت لست مسئولًا عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان «اليهود والنصارى» حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقًا دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئًا، لأن كل نفس بما كسبت رهينة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي لا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه[1].

البَلاَغَة: ١ - ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود: وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من «السَّبح» ومن جهة النقل إلى التفعيل «التسبيح» ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهًا لائقًا به.

---

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ١١٧.

٢ - ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قَٰنِتُونَ﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان.

٣ - التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.

٤ - إيراد الهدى معرفًا ب «أل» في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ مع اقترانه بضمير الفصل «هو» يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى.

٥ - ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب.

تنبيه: قال «القرطبي»: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: مبدع، ومنه أصحاب البدع، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام[1] وفي البخاري «نعمت البدعة هذه» يعني قيام رمضان[2].

---

(١) (ش): الأصل في العبادات المنع حتى يأتي دليل من القرآن أو السُّنة الصحيحة، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ). قال الحافظ ابن رجب: «فمن تقرب إلى الله بعمل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود» [جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٨)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «الأصل الذي بنى الإمام أحمد وغيره من الأئمة عليه مذاهبهم أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها دينًا ينتفعون بها في الآخرة أو في الدنيا والآخرة، وإلى عادات ينتفعون بها في معايشهم. فالأصل في العبادات أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله. والأصل في العادات أن لا يحظر منها إلا ما حظره الله» «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (ص ٢٥٨٢)».

(٢) (ش): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رضى الله عنه - لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ، إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّى الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ، وَيُصَلِّى الرَّجُلُ فَيُصَلِّى بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّى أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ . ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ قَارِئِهِمْ، قَالَ عُمَرُ نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ، وَالَّتِى يَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنَ الَّتِى يَقُومُونَ . يُرِيدُ آخِرَ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ . (رواه البخاري).

قال الحافظ ابن حجر في «فتح البَاري» (٤/ ٢٥٣): (قَوْلُهُ: قَالَ عُمَرُ: «نِعْمَ الْبِدْعَةُ». فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ» بزياة تَاءٍ). اهـ. وهي رواية مالك في «الموطّأ».

وهذا القول من عمر رضي الله عنه قد يكون على سبيل الرد والمناظرة، ومعناه: إذا كان هذا الفعل بدعة، فنعم البدعة هذه، كأنه كان جوابًا على معترض، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

أو أنه قصد البدعة اللغوية، أي أنها بدعة باعتبار إحيائها وإعادة العمل بها بعد أن توقف. فصلاة التراويح جماعة وراء إمام واحد لم يكن معهودًا ولا معمولًا زمن خلافة أبي بكر وشطرًا من خلافة عمر فهي بهذا الاعتبار حادثة ولكن بالنظر إلى أنها موافقة لما فعله ﷺ فهي سنة وليست بدعة وما وصفها بالحُسْن إلا لذلك. ومراده أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصول في الشريعة يُرجع إليها، فمنها أن النبي ﷺ =

ثم قال: وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أَن يكون لها أصل في الشرع أو لا؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر: «نعمت البدعة هذه» وإلاّ فهي في حيز الذم والإنكار وقد بيّن هذا الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها.. ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها..»[(١)] [(٢)].

= كان يحث على قيام رمضان ويُرغّب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانًا، وهو ﷺ صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثم امتنع بعد ذلك معللًا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به (رواه البخاري)، وهذا قد أُمِنَ بعده ﷺ وروى عنه أنه كان يقوم بأصحابه ليالي الأفراد في العشر الأواخر (رواه أبو داود وصححه الألباني.). ومنها أنه ﷺ أمَر باتباع سنة الخلفاء الراشدين، وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين، فإن الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم». (انظر: «الاعتصام» (١/ ١٩٠). «جامع العلوم والحكم» (ص٣٦٦، ٣٦٧).)

(١) «القرطبي» ٢/ ٨٧.

(٢) (ش): عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ « ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ». قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ - قَالَ - ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). المجتاب: اللابس. المذهبة: الشيء المموه بالذهب. النمار: جمع نمرة وهي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ الِاسْتِنَانَ بِمَعْنَى الِاخْتِرَاعِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِهِ الْحَدِيثُ هُوَ الصَّدَقَةُ الْمَشْرُوعَةُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ هَاهُنَا مِثْلُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ الصَّحَابِيُّ، وَهُوَ الْعَمَلُ بِمَا ثَبَتَ كَوْنُهُ سُنَّةً، فَكَأَنَّهَا كَانَتْ سُنَّةً أَيْقَظَهَا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِفِعْلِهِ، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً وَابْتَدَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ ثَابِتَةً. فَإِذًا قَوْلُهُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً» مَعْنَاهُ: مَنْ عَمِلَ بِسُنَّةٍ، لَا مَنِ اخْتَرَعَ سُنَّةً. وَالْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وَجْهَيِ الْجَوَابِ: أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ مِنْ أَصْلٍ لِأَنَّ كَوْنَهَا حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّرْعِ فَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ السُّنَّةُ فِي الْحَدِيثِ إِمَّا حَسَنَةً فِي الشَّرْعِ وَإِمَّا قَبِيحَةً بِالشَّرْعِ، فَلَا يَصْدُقُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ الصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّنَنِ الْمَشْرُوعَةِ، وَتَبْقَى السُّنَّةُ السَّيِّئَةُ مُنَزَّلَةً عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي ثَبَتَ بِالشَّرْعِ كَوْنُهَا مَعَاصِيَ كَالْقَتْلِ الْمُنَبَّهِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ ابْنِ آدَمَ، حَيْثُ قَالَ عليه السلام: لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ، (رواه البخاري). وَعَلَى الْبِدَعِ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ ذَمُّهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا بِالشَّرْعِ (انظر: الاعتصام (١/ ١٧٩ - ١٨١)).

فالحديث لَا يثبت الابتداع الحسن في الإسلام، فقد قال ﷺ: « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً »، ولم يقل: «من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة». وقد ردّ النبي ﷺ قول الثلاثة الذين قال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا»، وقال آخر: «أنا أصوم الدهر ولا أفطر» وقال آخر: «أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا»، وقال لهم: «من رغب عن سنتي فليس مني» (رواه البخاري). مع أن لفعلهم هذا أصلًا في الشرع من الصلاة والصيام؟

قال الله تعالى:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل، وبيّن كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال، وصل حديثهم بقصة إبراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرون بفضله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم «محمد» ﷺ ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم، ثم هو من ولد إسماعيل عليه السلام فكان أولى الاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام.

اللغة: ﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾ امتحن والابتلاء: الاختبار ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إِمَامًا﴾ الإمام: القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مَثَابَةً﴾ مرجعًا من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إليه لا يقضون منه وطرهم قَالَ الشَّاعِرُ:

جُعِلَ الْبَيْتُ مَثَابًا لَهُمْ ... لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرَ يَقْضُونَ الْوَطَرْ

﴿وَأَمْنًا﴾ الأمن: السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وَعَهِدْنَآ﴾ أمرنا وأوحينا ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ من التمتيع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ جمع مَنْسك وهي العبادة والطاعة ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال: زكا الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

التفسير: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل، وكلّفه بجملة من التكاليف الشرعية «أوامر ونواهٍ» فقام بهن خير قيام ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومنارًا يهتدي بك الخلق ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي قال إبراهيم واجعل يا ربّ أيضًا أئمة من ذريتي ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحدٌ من الكافرين ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعًا للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿وَأَمْنًا﴾ أي مكان أمن يأمن من لجأ إليه، وذلك لما أودع الله في قلوب العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ أي وقلنا للناس اتخذوا من المقام - وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلّى أي صلوا عنده ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلًا للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام: الطائفين، والمعتكفين، والمصلين.. ثم أخبر تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة المكرمة - بلدًا ذا أمن يكون أهله في أمنٍ واستقرار ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جوابًا له ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي قال الله وأرزق من كفر أيضًا كما أرزق المؤمن، أأخلق خلقًا ثم لا أرزقهم؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعًا قليلًا وذلك مدة حياته فيها ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي ثم أُلجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصًا[1] ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم. قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبرّ والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين «إبراهيم وإسماعيل» قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي اقبل منا عملنا هذا واجعله خالصًا لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ

(١) (ش): أي ليس له منها مفر ولا مهرب.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولًا من أنفسهم وهذا من جملة دعواتهما المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنة المطهرة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

البَلاَغَة: ١ - التعرض لعنوان الربوبية ﴿ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواه يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى.

٢ - إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿ءَامِنًا﴾ للمبالغة والإسناد مجازيٌ أي آمنًا من دخله كقوله: تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٨] وخيرُ ما فسرته بالوارد.

٣ - إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج: ٢٦] للتشريف والتعظيم.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأنَّ السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبَنّاء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود: وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة[1].

٥ - ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن (فعال وفعيل) من صيغ المبالغة.

الفوَائِد: الفائدة الأولى: تقديم المفعول في قوله ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول، فلو قُدّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظًا ورُتبةً قال ابن مالك:

وَشَاعَ نَحْوُ خَافَ رَبَّهُ عُمَرْ ... وشَذَّ نَحْوَ زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَرْ[2]

الثانية: الاختبار في الأصل الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق.

الثالثة: اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال: «الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله

---

(١) «تفسير أبي السعود» ١/ ١٢٤.

(٢) (ش): (النَّوْرُ) بفتح النون، هو الزهر أو الأبيض منه. (وشَذَّ نَحْو زَانَ نَوْرُهُ الشَّجَر) أي شذ في كلامهم تقديم الفاعل المتصل بضمير المفعول المتأخر.

حين أمر بمفارقتهم، ومحاجة نمروذ في الله، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه»[١].

الرابعة: المراد من الإمامة في الآية الكريمة «الإمامة في الدين» وهي النبوة التي حرمها الظالمون، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة.

الخامسة: ذكر العلامة ابن القيم أن السرَّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب ومحبتها له، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرًا، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا.

لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْها حِينَ يُبْصِرُها ... حتَّى يَعودَ إليها الطَّرْفُ مشتاقا[٢]

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين، وأكّد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي، خفيف العقل، متبع لخطوات الشيطان.

اللغة: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ امتهنها واستخفّ بها وأصل السفه: الخفة ومنه زمام سفيه، أي: خفيف ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ أي جعلناه صافيًا من الأدناس، مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلَّة والإمامة العظمى ﴿وَوَصَّىٰ﴾ التوصية: إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خَلَتْ﴾ مضت وانقرضت.

التفسير: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخفّ نفسه وامتهنها ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلصْ نفسك له

(١) «الدر المنثور» ١/ ١١.

(٢) «محاسن التأويل» ٢/ ٢٤٧.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعتُ لحكمه ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي وصّى الخليل أبناءه باتباع ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الإسلام دينًا وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ ؟ أي أيَّ شيء تعبدونه بعدي؟ ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي لا نعبد إلا إلهًا واحدًا هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون، والغرض تحقيق البراءة من الشرك.

قال تعالى مشيرًا إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَمَن يَرْغَبُ﴾ استفهام يراد به الإنكار والتقريع، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين.

٢ - التأكيد بـ «إنَّ» و «اللام» ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لأنه لما كان إخبارًا عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد.

٣ - ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إِذْ قَالَ﴾ والالتفات من محاسن البيان، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿رَبُّهُۥٓ﴾ لإظهار مزيد اللطف والإعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل: أسلمت لك للإيذان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان ربًّا للعالمين لا يليق إلا أن يُتلقّى أمرُه بالخضوع وحسن الطاعة.

٤ - قوله ﴿ءَابَآئِكَ﴾ شمل العم والأب والجد، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب «التغليب» وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام.

فَائِدَة: قال أبو حيان: «كنّى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسُه لا يقول المحتضر شيئًا، وفي قوله ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء: واجعل الموت خير غائب ننتظره»[1].

تنبيه: ظاهر قوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ النهي عن الموت إلا على هذه

(١) «البحر المحيط» ١/ ٤٠١.

الحالة من الإسلام، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبدًا واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل، كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام، دين جميع الأنبياء والمرسلين.

اللغة: ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف: المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق، والحنفُ الميل وبه سمي الأحنف لميل في إحدى قدميه قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَكُنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا ... حَنِيفًا دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ [1]

﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ جمع سِبْط وهم حفدةُ يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطًا وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شِقَاقٍ﴾ الشقاق: المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ الصبغة مأخوذة من الصَّبْغ وهو تغيير الشيء بلونٍ من الألوان والمراد بها الدِّينُ ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا من المحاجّة وهي المجادلة ﴿مُخْلِصُونَ﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده.

التفسير: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهودًا

(١) «الكشاف» ١/ ١٤٥.

تهتدوا وقال النصارى: كونوا نصارى تهتدوا فكلٌّ من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتّبع ملة الحنيفية السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلًا عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمنًا موحّدًا وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذان بأنَّ ما هم عليه إنما هو شرك وضلال. ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي قولوا أيها المؤمنون: آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أي وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعًا ونصدّق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك، وليسوا من طلب الحق في شيء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب، ولا أحد أحسن من الله صبغةً أي دينًا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ أي ونحن نعبده جلّ وعلا ولا نعبد أحدًا سواه ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه، وأن الأنبياء منكم دون غيركم؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي ربُّ الجميع على السواء وكلُّنا عبيده ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أي قد أخلصنا الدين والعمل لله ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ ؟ أي أم تدّعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهودًا أو نصارى ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ أي أأنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٦٧] فكيف تزعمون أنهم على دينكم؟ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما

أخبر البارئ عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كرّرها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء -على فضلهم وجلالة قدرهم- يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، وقد تقدم «تفسيره»ا فأغنى عن الإعادة[١].

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود: كونوا يهودًا وقال النصارى: كونوا نصارى، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلًا.

٢ - ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾ فيه إيجاز ظاهر أن يكفيك الله شرهم، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب.

٣ - ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء.

٤ - ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سِمتُه على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب[٢].

٥ - ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع.

الفوَائِد: الفائدة الأولى: تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قال أبو حيان: ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيدًا ومُعْلِمَةً أن الله لا يترك أمرهم سُدى[٣].

الثانية: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ النَّصَارَى كَانَ إِذَا وُلِدَ لِأَحَدِهِمْ وَلَدٌ فَأَتَى عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَيَّامٍ، صَبَغُوهُ فِي مَاءٍ لَهُمْ يُقَالُ له: الْمَعْمُودِيُّ، لِيُطَهِّرُوهُ بِذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا طَهُورٌ مَكَانَ الْخِتَانِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالُوا: الْآنَ صَارَ نَصْرَانِيًّا حَقًّا[٤]، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ[٥][٦].

الثالثة: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلاَ تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا ﴿..وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾» . الآيَةَ . رواه البخاري.

---

(١) راجع تفسير الآية ١٣٤.

(٢) «تلخيص البيان» ص١١.

(٣) «البحر المحيط» ١/ ٤١٦.

(٤) (ش): في الأصل: فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ صَارَ نَصْرَانِيًّا حَقًّا، والتصحيح من «أسباب النزول» للواحدي.

(٥) (ش): أي قوله تعالى: صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً، وما رُوِيَ عن ابن عباس ذكره الواحدي في «أسباب النزول» بدون إسناد.

(٦) «أسباب النزول» للواحدي ص٢٢.

قال الله تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

المنَاسَبَة: زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهودًا ونصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أُمر ﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرّفة طعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقّنه الحجة الدامغة ليردّ عليهم، ويوطّن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام.

اللغَة: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي، قليل المعرفة بالمنافع والمضار، وأصل السفه الخفة والرقة من قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسيج ﴿وَلَّىٰهُمْ﴾ صرفهم يقال: ولّى عن الشيء وتولّى عنه، أي: انصرف ﴿وَسَطًا﴾ قال «الطبري»: الوسط في كلام العرب: الخيار وقيل: العدل[1]، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عَقِبَيْهِ﴾ تثنية عقب وهو مُؤَخَّر القدم ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقة وثقيلة ﴿شَطْرَ﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر: تَعْدُو بِنَا شَطْرَ نَجْدٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ»[2].

سَبَبُ النّزول: عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يتوَجَّهَ نحو الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمُ الْيَهُودُ - مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[3] إلى آخر الآية، أخرجه البخاري.

التفسير: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ

(١) «مختصر «الطبري» ١/ ٥٥.
(٢) رواه مسلم.
(٣) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٣.

عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ أي ما صرفهم وحوّلهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس، قبلة المرسلين من قبلهم؟ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أي قل لهم يا محمد: الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولًا خيارًا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدّق الرسول، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أي وإن كان هذا التحويل لشاقًّا وصعبًا إلا على الذين هداهم الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها، وذلك حين سألوه ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت، وقوله: تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليل للحكم أي: إنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ لأنه كثيرًا ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقًا لتحويل القبلة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ أي فلنوجهنك إلى قبلةٍ تحبها، - وهي الكعبة - قبلة أبيك إبراهيم ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضًا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌّ من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها، وفيه وعيد وتهديد لهم.

البَلاَغة: ١ - في قوله ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ استعارة تمثيلية حيث مثَّل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه. أفاده الإمام الفخر.

٢ - ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الرأفة: شدة الرحمة وقدّم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كلاهما من صيغ المبالغة.

٣ - ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] وهذا النوع يسمى «المجاز المرسل» من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل[1].

---

(١) (ش): تأويلُ الوجهِ بالذاتِ تأويلٌ باطلٌ؛ لأنه نَفْيٌ لصفةٍ ثابتةٍ لله تعالى.

الفوَائِد: الأولى: أخرج البخاري في «صحيحه» أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلّغ» فذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا﴾.

الثانية: سمى الله تعالى الصلاة «إيمانًا» في قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بها، ولأنها تشتمل على نيةٍ وقولٍ وعمل.

الثالثة: في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرجًا عظيمًا على الناس.

قال الله تعالى:

وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة، وإنما خالفوك عنادًا واستكبارًا، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب.

اللغَة: ﴿ءَايَةٖ﴾ الآية: الحجة والعلامة ﴿أَهۡوَآءَهُم﴾ جمع هَوى مقصور، وهوى النفس: ما تحبه وتميل إليه ﴿ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الامتراء: الشك، امترى في الشيء شك فيه ومنه المراء والمرْية ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحج: ٥٥] أي: شك ﴿وِجۡهَةٌ﴾ قال الفراء: وجهة وجِهَة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القِبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ أي هو مولّيها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء: أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي: بادروا وسارعوا ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ الأعمال الصالحة جمع خيْرة ﴿تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ تخافوهم والخشية: الخوف.

التفسير: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ أي والله لئن جئت

اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حوّلك الله عنها، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود: لو ثبتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريرًا له عليه السلام ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاه ﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهييج للثبات على الحق. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي يعرفون محمدًا معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأحبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكوننَّ من الشاكّين، والخطاب للرسول والمراد أمته ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي لكل أمة من الأمم قبلةٌ هو مولّيها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي في أي موضع تكونون من أعماق الأرض أو قمم الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام﴾ أي من أيّ مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تقدم «تفسيره» وكرّره لبيان تساوي حكم السفر والحضر. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي عرّفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا: يجحد ديننا ويتبع قبلتنا فيكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين: يدعى محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ

تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين.

البَلاَغَة: ١ - وضْع اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد[١].

٢ - ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق.

٣ - ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأنها جملة اسمية أولًا ولتأكيد نفيها بالباء ثانيًا ذكره صاحب «الفتوحات الإلهية».

٤ - ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فيه تشبيه «مرسل مفصل» أي يعرفون محمدًا معرفةً واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم.

الفوَائِد: الأولى: روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك؟ قال وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبيٌّ، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت، فقبّل عمر رأسه[٢].

الثانية: توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه إلى غيرهم، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنه ليس المرتكب ذنبًا عن جهل كمن يرتكبه عن علم.

الثالثة: تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال «القرطبي»: والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو ببقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار[٣].

قال الله تعالى:

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

المنَاسَبَة: بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة، وقد

---

(١) (ش): أي ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بدلاً من (ولئن أتيتهم).

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ١٤٠.، و«محاسن التأويل» ٢/ ٣٠٥.

(٣) «القرطبي» ٢/ ١٦٨.

عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء دون التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين.

اللغة: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن العظيم ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنّة النبوية ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور، وسُمّي الذكر باللسان ذكرًا لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ أصل البلاء المحنة، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ﴿مُّصِيبَةٌ﴾ المصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار.

التفسير: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى﴾ [البقرة: ١٥٠] والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولًا منكم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد، والسنة النبوية المطهرة ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة[1] ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان، روي أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني»[2] ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة فالبصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة

---

(١) (ش): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ» رواه البخاري ومسلم.

(٢) «ابن كثير المختصر» ١/ ١٤٢.

(ش): هذا الأثر لا يثبت عن النبي ﷺ، وقد ذكره المؤلف هنا بصيغة التمريض «رُوِيَ» التي تشير إلى ضعف الرواية. وقد ورد عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ لِرَبِّهِ: أَيْ رَبِّ أَخْبِرْنِي كَيْفَ أَشْكُرُكَ. قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تَذْكُرُنِي وَلا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي. (رواه ابن أبي حاتم الرازي في «تفسيره»).

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٥) قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ؟ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: تذكرُني وَلَا تَنْسَانِي، فَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَقَدْ شَكَرْتَنِي، وَإِذَا نَسِيتَنِي فَقَدْ كَفَرْتَنِي.

وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الْخطاب، روى عَن أنس وَجَابِر بن عبد الله وَسَلَمَة بن الْأَكْوَع وَابْن عمر وَأبي هُرَيْرَة وَعَائِشَة، وهو فقيه مفسر، من أهل المدينة. كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته.وكان ثقة، توفي سنة ١٣٦هـ. فبينه وبين موسى عليه السلام مفاوز.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ﴾ أي لا تقولوا للشهداء: إنهم أموات ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ أي بل هم أحياء عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك، لأنهم في حياةٍ برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ أي ولنختبرنكم بشيءٍ يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع، وذهاب بعض الأموال، وموت بعض الأحباب، وضياع بعض الزروع والثمار ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بيّن تعالى تعريف الصابرين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد الله يفعل بهم ما يشاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله، وهم المهتدون إلى طريق السعادة.

البَلاَغَة: ١ - بين كلمتي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿رَسُولٗا﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية.

٢ - ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ بعد قوله ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب).

٣ - ﴿أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق).

٤ - التنكير في قوله ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ للتقليل أي بشيء قليل.

٥ - ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ التنوين فيهما للتفخيم، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿رَّبِّهِمۡ﴾ لإظهار مزيد العناية بهم.

٦ - ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف.

الفوائِد: الأولى: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «ما أصابتني مصيبة إلا وجدتُ فيها ثلاث نعم: الأولى: أنها لم تكن في ديني، الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت، الثالثة: أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ ».

الثانية: قال ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون حَمِدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسمُّوه بيتَ الحمد»[1].

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

المناسَبَة: لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله، ثم نبّه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمانه، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار.

اللغَة: ﴿شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة: العلامة ومنه الشِّعار، وأشعر الهَدْي جعل له علامة ليعرف بها، والشعائر: كلُّ ما تعبّدنا الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه. ﴿حَجَّ﴾ الحجُّ في اللغة: القصد، وفي الشرع: قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي ﴿ٱعْتَمَرَ﴾ العمرة في اللغة: الزيارة ثم صار علمًا لزيارة البيت للنُّسك ﴿جُنَاحَ﴾ الجُناح: الميل إلى الإثم وقيل: هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال: جنح إلى كذا إذا مال قال ابن الأثير .. وأينما ورد فمعناه الإثم والميل ﴿يَكْتُمُونَ﴾ الكتمان: الإخفاء والستر ﴿يُنظَرُونَ﴾ يُمهلون.

التفسير: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ اسم الجبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبدنا الله بها ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام، فاسعوا أنتم لله رب العالمين، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه، أو فعل خيرًا فرضًا كان أو نفلًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله: تعالى ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون

بقبيح الأعمال، الكاتمون لأوصاف الرسول، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي كفروا بالله واستمرّوا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعًا، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضًا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي خالدين في النار - وفي إضمارها تفخيم لشأنها - ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخفف عنهم طرفة عين ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا.

سَبَبُ النّزول: عن أنسٍ رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [(١)].

البَلاَغَة: ١ - ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف.

٢ - ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود: عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز[(٢)].

٣ - ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل «نلعنهم» ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب.

٤ - ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ فيه جناس الاشتقاق. وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيمًا لشأنها وتهويلًا لأمرها.

٦ - ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ إيثار الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره.

الفوَائِد: الأولى: كان على الصفا صنم يقال له: «إساف» وعلى المروة صنم يقال له: «نائلة» فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تحرجوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبين أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام.

الثانية: الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس لأحد عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حمله العلماء على الثواب والجزاء أي

---

(١) أخرجه البخاري، وانظر «الدر المنثور» للسيوطي ١/ ١٥٩. (ش): (رواه البخاري ومسلم).

(٢) (ش): الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى.

إنه تعالى يثيبه ولا يضيع أجر العاملين. أقول: والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت، فهو شكر يليق بجلاله وكماله[1].

قال الله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم العالم السفلي، ثم بتعاقب الليل والنهار، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله، وإعمال العقل في جميل خلقه، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبّر الحكيم.

اللغَة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ الإله: المعبود بحقٍ أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿وَالْفُلْكِ﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وَبَثَّ﴾ فرَّق ونشر ومنه ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] ﴿دَابَّةٍ﴾ الدابة في اللغة: كل ما يدِب على الأرض من إنسانٍ وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويدًا وقد خصّه العرف بالحيوان، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن

---

(١) (ش): الشاكر والشكور، من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتثل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق. ثم بعد ذلك، يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملا موفرًا، لم تنقصه هذه الأمور. ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئا لله أعاضه الله خيرا منه، ومن تقرب منه شبرا، تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا؛ تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي؛ أتاه هرولة، ومن عامله؛ ربح عليه أضعافًا مضاعفة. ومع أنه شاكر، فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد، فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ الريّاح: جمع ريح وهي نسيم الهواء، وتصريفُها تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال، فتهب حارة وباردة، وعاصفة ولينة، وملقحة للنبات وعقيمًا ﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أَندَادًا﴾ جمع نِدّ وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصداقة ﴿كَرَّةً﴾ الكرَّة: الرَّجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ جمع حسْرة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

سَبَبُ النّزول: عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ فقالت كفار قريش بمكة: كيف يسعُ الناس إلهٌ واحد؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ... إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

التفسير: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مولي النعم ومصدر الإحسان[2] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن في إبداع السماوات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم، يأتي الليل فيعقبه النهار، وينسلخ النهار فيعقبه الليل، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي جاء به حياة البلاد والعباد ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوبًا وشمالًا، حارة وباردة، وليّنة وعاصفة ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبُّه على الأرض قطرات قطرات، قال كعب

---

(١) «أسباب النزول» للواحدى ص ٢٥، و«القرطبي» ٢/ ١٩١. (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والواحدي في «أسباب النزول» بسند ضعيف.

(٢) (ش): الرحمن الرحيم: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء. والنعم كلها من آثار رحمته.

الأحبار: السحاب غِربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض[١] ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة، والحكمة الباهرة، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أندادًا أي رؤساء وأصنامًا ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ أي حب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي وأنَّ عذاب الله شديد أليم وجواب «لو» محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودّات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ أي تمنّى الأتباع لو أنّ لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب.. قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي إنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار، بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ورد الخبر خاليًا من التأكيد تنزيلًا للمنكر منزلة غير المنكر، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع.

٢ - ﴿لَآيَٰتٍ﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة.

٣ - ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه التشبيه.

٤ - ﴿أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ التصريح بالأشدّية أبلغ من أن يقال «أحبُّ لله» كقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤] مع صحة أن يقال: أو أقسى.

٥ - ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح.

٦ - في قوله ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ و﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ من علم البديع ما يسمى بـ «الترصيع» وهو أن يكون الكلام مسجوعًا.

---

(١) «البحر المحيط» ١/ ٤٦٧.

٧ - ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود.

الفوَائِد: الأولى: ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبيهًا على ما فيها من العبر واستدلالًا على الوحدانية من الأثر، الأول: خلق السماوات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر، الثاني: الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر، الثالث: اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان، الرابع: السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة بالأثقال والرجال تجري بها الريح مقبلة ومدبرة، الخامس: المطر الذي جعله الله سببًا لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار، السادس: ما بثّ في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان، السابع: تصريف الرياح والهواءُ جسم لطيفٌ وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيمة وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لَمَاتَ كل ذي روح وأنْتَنَ ما على وجه الأرض، الثامن: السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقًا بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار.

الثانية: ورد لفظ الرياح مفردة ومجموعة، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] وروي أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»(١).

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

(١) (ش): رواه الطبراني، وضعفه الألباني.

المنَاسَبَة: لمّا بيّن تعالى التوحيد ودلائله، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام، لأنه تعالى رب العالمين، فإحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلَّ وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث.

اللغَة: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ جمع خُطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازًا في تتبع الآثار ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أصل السُّوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه، ويطلق على المعصية قولًا أو فعلًا أو اعتقادًا لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المآل ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ وجدنا ومنه ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف: ٢٥] و﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ [الصافات: ٦٩] أي وجدوا ﴿يَنۡعِقُ﴾ يصيح يقال: نعق الراعي بغنمه ينعِق نعيقًا إذا صاح بها وزجرها. قال الأخطل:

فَانْعَقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا ... مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَا

﴿أُهِلَّ﴾ الإهلال: رفع الصوت يقال: أهلَّ المحرم إذا رفع صوته بالتلبية، ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزَّى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ أُلجئ أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ الباغي من البغي والعادي من العدوان، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحدّ ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم، من التزكية وهي التطهير ﴿شِقَاقِۭ﴾ الشقاق: الخلاف والعداوة.

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا ممّا أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطابًا في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرذائل ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرّم عليكم فتحلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا قيل للمشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، قال تعالى في الردّ عليهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أي أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء، ثم ضرب تعالى مثلًا للكافرين في غاية

الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] ولهذا قال تعالى ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي صمٌّ عن سماع الحق، بكم أي خرسٌ عن النطق به، عُمْيٌ عن رؤيته؛ فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون. وخلاصة المثل - والله أعلم - مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية. والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون أحدًا سواه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أي ما حرّم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقوله:م باسم اللات والعزّى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون ساعيًا في فساد، ولا متجاوزًا مقدار الحاجة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي يأخذون بدله عوضًا حقيرًا من حطام الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ أي إنما يأكلون نارًا تأجّج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي لا يكلمهم كلام رضى كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي لايطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبينًا سبب النكال والعذاب ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿التوراة﴾

ببيان الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب، مستوجب لأشدّ العذاب.

سَبَبُ النّزول: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [١] الآية[٢].

البَلاَغَة: ١ - ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في «تلخيص البيان»: وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله[٣].

٢ - ﴿بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ هو من باب «عطف الخاص على العام» لأن السوء يتناول جميع المعاصي، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي.

٣ - ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهائم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده.

٤ - ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ حذفت أداة الشبه ووجه الشبه فهو «تشبيه بليغ» أي هم كالصم في عدم سماع الحق وكالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن.

٥ - ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار. وقوله: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رضف جهنم، وذلك أفظع سماعًا وأشد إيجاعًا.

٦ - ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدّم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة.

الفوَائِد: الأولى: عن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة! فقال: «يا سعد؛ أطبْ مطعمَك تكنْ مستجابَ الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبَّلُ منه أربعين يومًا، وأيّما عبدٍ نبت لحمه من السُّحتِ والربا فالنارُ أولى به» [٤] [٥].

---

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢٨.

(٢) (ش): موضوع، أخرجه الثعلبي، وذكره الواحدي في «أسباب النزول» معلقًا.

(٣) «تلخيص البيان» ص ١١.

(٤) أخرجه الحافظ ابن مردويه.

(٥) (ش): أخرجه الطبراني، وضعفه الألباني. ويُغني عنه قوله ﷺ: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، (رواه أبو نُعيم في «الحلية» وأحمد في «الزهد» وصححه الألباني). وحديث أبي هُرَيرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: =

الثانية: قال بعض السلف: «يدخل في اتباع خطواتِ الشيطان كلُّ معصية لله، وكل نذرٍ في المعاصي قال الشعبي: نذر رجلٌ أن ينحر ابنه فأفتاه مسروقٌ بذبح كبش وقال: هذا من خطوات الشيطان»[1].

الثالثة: قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» عن قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ قال: لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وأن تجعله من التشبيه المفرّق، فإن جعلته من المركب كان تشبيهًا للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئًا غير الصوت المجرّد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرّق: فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق. والله أعلم.

قال الله تعالى:

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

المناسبة: من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب، ونصف السورة السابق كان متعلقًا بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أنّ أهل الكتاب

= «إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاَّ طيِّبًا، وإنَّ الله تَعَالَى أمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثُمَّ ذكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ: أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يمُدُّ يدَيْهِ إلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بالحَرَام، فأنَّى يُستَجَابُ لِذلكَ؟» (رواهُ مُسلمٌ).

(١) «محاسن التأويل» ٣/ ٣٦٨. (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ». (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

اختلفوا في دينهم اختلافًا كبيرًا صاروا بسببه في شقاق بعيد، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة، وادّعى كلٌّ من الفريقين - اليهود والنصارى - أن الهدى مقصور على قبلته، فردّ الله عليهم بيَّن أن العبادة الحقة وعمل البرّ ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب، ولكن بطاعة الله وامتثال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ.

اللغَة: ﴿ٱلْبِرَّ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العُنقُ، وتطلق على البدن كله كما تطل العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى[1] والأرِقَاء ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ السقم والوجع ﴿ٱلْبَأْسِ﴾ القتال وأصل البأس في اللغة: الشدّة ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿ٱلْقِصَاصُ﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القصّ وهو تتبع الأثر ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] اتبعى أثره ﴿ٱلْقَتْلَى﴾ جمع قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال: رجل قتيل وامرأة قتيل ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لبّ النخلة ﴿إِثْمًا﴾ الإثم: الذنب ﴿جَنَفًا﴾ الجنف: العدول عن الحق على وجه الخطأ.

سَبَبُ النّزول: عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغيٌ وطاعةٌ للشيطان، وكان الحيُّ منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدُهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حرًا، وإذا قتلت امرأةٌ منهم امرأةً من آخرين قالوا: لن نقتل بها إلا رجلًا فأنزل الله ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾[2].

التفسير: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ليس فعلُ الخير وعملُ الصالح محصورًا في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق والمغرب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ولكنَّ البرَّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم أولى بالمعروف ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأعطى المال أيضًا لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرِقَّاء بالفداء ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي وأتى

---

(١) (ش): أي الأسرى من المسلمين.

(٢) «الدر المنثور» ١/ ١٧٣. (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، والبيهقي في «السنن الكبرى».
وعن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: كان قبلكم يقتلون القاتل بالقتيل لا تقبل منه الدية؛ فأنزل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ إلى آخر الآية: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فخفف عنكم ما كان على من قبلكم؛ أي: الدية لم تكن تقبل، فالذي يقبل الدية؛ فذلك عفو؛ فاتباع بالمعروف، ويؤدي إليه الذي عفي من أخيه بإحسان. (أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، وابن حبان في «صحيحه» بسند حسن).

بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله، وهو منصوب على المدح ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيراتٍ حسان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى، مثلًا بمثل ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء، بأن ترك وليُّه القَوَد[1] وأسقط القصاص راضيًا بقبول الدية ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي فعلى العافي اتباعٌ للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنفٍ ولا إرهاق، وعلى القاتل أداءٌ للدية إلى العافي - ولي المقتول - بلا مطل ولا بخس ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القتيل وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة، فجعل القصاص حقًا لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ولكم - يا أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياةٌ أيُّ حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفسًا قُتل بها يرتدع وينزجر عن القتل، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتحفُظ حياة الناس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي فرض عليكم إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالًا كثيرًا ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿بالمعروف حَقًّا عَلَى المتقين﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقًا لازمًا على المتقين لله. وقد كان هذا واجبًا قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ أي من غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصيّ أو شاهد ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥ ۚ﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد شديد للمبدِّلين ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ أي فمن علم أو ظنَّ

(١) (ش): الْقَوَدُ: الْقِصَاص.

من الموصِي ميلًا عن الحق بالخطأ ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ أي: ميلًا عن الحق عمدًا ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي أصلح بين الموصِي والموصَى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾ جعل البرَّ نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون: السخاء حاتم، والشعر زهيرٌ أي: إن السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير، وعلى هذا خرّجه سيبويه حيث قال في كتابه قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾ وإنما هو ولكنَّ البر برُّ من آمن بالله انتهى[1] ونظير ذلك أن تقول: ليس الكرم أن تبذل درهمًا ولكنَّ الكرم بَذْلُ الآلاف، فلا يناسب: «ولكنَّ الكريم من يبذل الآلاف».

٢ - ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى، وفي لفظ الرقاب «مجاز مرسل» حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٣ - ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ الأصل أن يأتي مرفوعًا كقوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخصُّ بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذُكرت صفاتٌ للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعًا لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه.

٥ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلًا ماضيًا «صدقوا» لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر، وأتى بخبر الثانية جملة اسمية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجددًا بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضًا.

٦ - ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهييج.

٧ - الطباق بين ﴿فَٱتِّبَاعُۢ﴾ و﴿وَأَدَآءٌ﴾ وبين ﴿ٱلۡحُرُّ﴾ و﴿وَٱلۡعَبۡدُ﴾.

الفوَائِد: الأولى: في ذكر الأخوة تعطف داع إلى العفو فقد سمّى الله القاتل أخًا لولي المقتول ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ تذكيرًا بالأخوَّة الدينية والبشرية حتى يهزّ عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان.

الثانية: كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيّرها بين القصاص والدية والعفو، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيَّد الأنبياء ﷺ.

الثالثة: اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم: القتل أنفى للقتل، ولكنْ لورود الحكمة في القرآن فضلٌ من ناحية حسن البيان، وإذا شئتَ أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣.

على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق. أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاصَ وهو القتل عقوبةً على وجه التماثل، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتل، ومن القتل ما يكون ظلمًا فيكون سببًا للفناء. وتصحيحُ العبارة أن يقال: القتل قصاصًا أنفى للقتل ظلمًا، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسَّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سببًا للحياة والمثل جعل القتل سببًا لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة إلخ. وقد عدّ العلماء عشرين وجهًا من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في «الإتقان» فارجع إليه تجد فيه شفاء الغليل.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾

المنَاسَبَة: ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية، ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيئ عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار.

اللغَة: ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ في اللغة: الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة: كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قَالَ الشَّاعِرُ:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا[١]

وفي الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النيّة ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي يصومونه بعسر ومشقة قال الراغب: الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبِّه بالطوق المحيط بالشيء[٢] ﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شَهْرُ﴾ من الاشتهار وهو الظهور ﴿رَمَضَانَ﴾ من الرّمض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش ثم كنّي به عن الجماع قَالَ الشَّاعِرُ:

وَيُرَيْنَ مِنْ أُنْسِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَا وَبِهِنَّ عَنْ رَفَثِ الرِّجَالِ نِفَارٌ[٣]

﴿تَخْتَانُونَ﴾ قال في اللسان: خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة وسئل بعضهم عن السيف فقال: أخوك وإن خانك ﴿عَٰكِفُونَ﴾ الإعتكاف في اللغة: اللبث والزوم، وفي الشرع: المكث في المسجد للعبادة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الحدّ في اللغة: المنع وأصله الحاجز بين الشيئين المتقابلين، وسميت الأحكام حدودًا لأنها تحجز بين الحق والباطل.

سَبَبُ النّزول: روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ الآية[٤].

التفسير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويُذْكي فيهم جَذْوة الإيمان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام قلائل، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفًا ورحمةً بكم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافرًا فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا فعليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ ثم قال تعالى ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون

---

(١) (ش): خَيْلٌ صِيَامٌ: أَيْ خَيْلٌ ثَابِتَةٌ مُمْسِكَةٌ عَنِ الْجَرْيِ وَالْحَرَكَةِ. وعَلَكَ الفرسُ اللجام: أي مضَغَه وعَضَّه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣١٢.

(٣) (ش): نِفار: ابتعاد، إعراض، وصدود.

(٤) (ش): أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن جرير في «جامع البيان» وضعّفه الحافظ ابن حجر والشيخ أحمد شاكر.

ما في الصوم من أجر وفضيلة، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي ومن كان مريضًا أو مسافرًا فأفطر فعليه صيام أيام أخر، وكرّر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه.. ثم بيّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين. . ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ أي أبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال ابن عباس: هنّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرمًا في صدر الإسلام ثم نسخ، روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي كلوا واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي لا تقربوهن ليلًا أو نهارًا ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون المحارم.

البَلاَغَة: ١ - ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى «مرسلًا مجملًا».

٢ - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضًا فأفطر، أو على سفرٍ فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر.

٣ - ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ في تفسير الجلالين قدّره بحذف «لا» أي لا يطيقونه، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة، والطاقةُ اسم لمن كان قادرًا على الشيء مع الشدة والمشقة.

٤ - ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ «طباق السلب».

٥ - ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ «إلى» لتضمنه معنى الإفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: إن الله عَزَّ وَجَلَّ كريم حليمٌ يكني[١].

٦ - ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ استعارة بديعة شبّه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه قال في «تلخيص البيان»: «المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة[٢]».

٧ - ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ قال الشريف الرضي: وهذه استعارة عجيبة والمراد بها بياض الصبح وسواد الليل والخيطان هاهنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقًا خافيًا، ويكون سواد الليل منقضيًا مولّيًا، فهما جميعًا ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشارًا وهذا يزداد استسرارًا، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ.

الفوَائِد: الأولى: روي عن الحسن أنه قال: إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يومًا من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك: نزيد فيه. فزادوا عشرًا، ثم بعد زمانٍ اشتكى[٣] ملكهم فنذر سبعًا فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال: ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يومًا وهذا معنى قوله

(١) «روائع البيان» ١/ ١٩٠، و«تلخيص البيان» ص ١٢.
(٢) انظر «الكشاف» ١/ ١٧٥.
(٣) اشتكى: أي مرضًا.

تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا ﴾ (١) [التوبة: ٣١].

الثانية: قال الحافظ ابن كثير: وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث «إنّ للصائم عند ف شكونا إلى رسول الله طره دعوة ما تُرد» وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي.

الثالثة: ظاهر نظم الجملة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ أنهم سألوا عن الله، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقوله في الجواب ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد، ولم يصدر الجواب بـ «قل» أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾ [طه: ١٠٥] بل تولّى جوابهم بنفسه إشعارًا بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات.

الرابعة: قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطّلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح «إِنَّ الَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(٢) وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوّه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء(٣).

الخامسة: عبّر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجل كريم حليم يكني.

قال الله تعالى:

وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَىٰ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ

---

(١) «التفسير الكبير» ٥/ ٧٦.

(٢) (ش): رواه مسلم بلفظ: «وَالَّذِى تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ».

(٣) (ش): اختصره المؤلف من مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٢-١٤٣).

ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

المنَاسَبَة: لمَّا بيّن تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقّبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق، لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبيّن أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات.

اللغَة: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ في اللغة: الزائل الذاهب يقال: بطل الشيء بطولًا فهو باطل. وفي الشرع: هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وَتُدْلُوا۟﴾ الإدلاء في الأصل: إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال: أدلى بحجته أي أرسلها، والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾[1] جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمرًا ثم بدرًا حين يتكامل نوره ﴿مَوَٰقِيتُ﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد وقيل: الميقات منتهى الوقت ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ثقِفَ الشيءَ إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة، ورجل ثَقِفٌ سريع الأخذ لأقرانه قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِمَّا تَثْقَفُونِي فَاقْتُلُونِي ... فَمَنْ أَثْقَفْ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ

﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الهلاكُ يقال: هَلَك هَلاكًا وتَهْلُكةً.

سَبَبُ النّزول: روي أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ...﴾ الآية[2].

ثانيًا: روى أن الْأَنْصَار كانوا إِذَا أَحْرَمَ الرَجُلُ مِنْهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لم يدخل بيتًا من بابه بل كان يدخل من نَقْب فِي ظَهْرِهِ، أَوْ يَتخذ سُلَّمًا يَصْعَدُ فيه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[3].

التفسير: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) «الرازي» ٥/ ١٣٢، و«أسباب النزول» للواحدى ص ٢٨.

(٢) (ش): (موضوع) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «معرفة الصحابة»، وابن منده في «معرفة الصحابة».

(٣) (ش): عَن البَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا، كَانَتِ الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ» : ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا، وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى، وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعبادتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي ولكنَّ العمل الصالح الذي يقرّبكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [الآية: ٣٦] وقيل: نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي شرّدوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي فتنة المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته والبادي بالشر أظلم ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفّوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بيّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله[1] ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي أنفقوا في

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن دخولها، وكان ذلك لما صدَّ الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة.

الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الإنفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه: لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ هذا النوع من البديع يسمى «الأسلوب الحكيم» فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لمَ يبدو صغيرًا ثم يزداد حتى يتكامل نوره؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره، وهذا ما يسميه علماء البلاغة «الأسلوب الحكيم» [(١)].

٢ - ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره: هتكُ حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز.

٣ - ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ سمّي جزاء العدوان عدوانًا من قبيل «المشاكلة» وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] قال الزجاج: العرب تقول ظلمني فلان فظلمته، أي: جازيته بظلمه.

فَائِدَة: لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة «سبيل الله» وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة.

تنبيه: كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ «قل» بلا فاء إلا في طه ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [الآية: ١٠٥] فقد وردت بالفاء، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا[(٢)].

فَائِدَة: روي أن رجلًا من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس: سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا: لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترْك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم[(٣)].

---

(١) (ش): تقدم أن هذه الرواية لم تثبت.

(٢) «الفتوحات الإلهية» ١/ ١٥٢.

(٣) (ش): (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني).

قال الله تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام، وأمّا آيات القتال فقد ذكرت عَرضًا لبيان حكمٍ هام وهو بيان الأشهر الحرام والقتال فيها وفيما لو تعرّض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيّن حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بيَّنت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لمّا أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبيّن أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الإرتباط بين الآيات السابقة واللاحقة.

اللغَة: ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الإحصار: معناه المنع والحبس يقال حَصرَه عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه. قال الأزهري: حُصر الرجلُ في الحبس، وأُحصر في السفر من مرضٍ أو انقطاع به ﴿ٱلْهَدْىِ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ المحِلُّ: الموضع الذي يحل به نحر الهَدْي وهو الحرام أو مكان الإحصار للمحْصَر ﴿نُسُكٍ﴾

جمع نسيكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جُنَاحٌ﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أَفَضْتُم﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصبًّا ومعنى ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ أي دفعتم منها بقوة تشبيهًا بفيض الماء. ﴿خَلَٰقٍ﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون للحساب.

الفوائد: أولًا: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (١).

ثانيًا: وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ (٢).

التفسير: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي أدُّوهُما تامَّيْن بأركانهما وشروطهما لوجه الله تعالى ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرضٍ أو عدوٍ وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرةٍ أو شاة ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي فمن كان منكم معشر المُحْرِمين مريضًا مرضًا يتضرر معه بالشعر فحلق، أو كان به أذى من رأسه كقمل وصداع فحلق في الإحرام، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة آصع على ستَّة مساكينَ أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها، فعليه ما تيسّر من الهدي وهو شاة يذبحها شكرًا لله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي عشرة أيام كاملة تجزئ عن الذبح، وثوابها كثوابه من غير نقصان ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ذلك التمتع أو الهَدْي خاص بغير أهل الحرم، أما سكّان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي خافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره.

---

(١) «أسباب النزول» ١/ ٣٢ للواحدى. (ش): رواه البخاري.

(٢) «أسباب النزول» ١/ ٣٢ للواحدى. (ش): رواه البخاري .

ثم بيّن تعالى وقت الحج فقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي: شوال وذو القعدة وعشرٌ من ذي الحجة ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي من ألزم نفسه الحجَّ بالإحرام والتلبية ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه، فعليه أن يترك الشهوات، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازكم عليه الله خير الجزاء ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينية، وقد كانوا يتأثمون من ذلك فنزلت؛ الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي اذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هداية حسنة، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي ثمّ انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسُكّان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون «الحُمْس» فأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي استغفروا الله عمّا سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشدّ، قال المفسرون: كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمروا أن يذكروا الله وحده ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همّه فيقول: اللهم اجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية، والدار الرحبة، والزوجة الحسنة، والرزقَ الواسع إلى غير ما هنالك

والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم إلخ ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي نَجِّنا من عذاب جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر[1] ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضًا ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم.

البَلاَغَة: ١ - ﴿بَلۡغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار.

٢ - ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضًا فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية.

٣ - ﴿وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية.

٤ - ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب «الإطناب» وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها.

٥ - ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ صيغته نفيٌ وحقيقته نهيٌ أي لا يرفثْ ولا يفسقْ وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر ممّا لا ينبغي أن يقع أصلًا فإنَّ ما كان منكرًا مستقبحًا في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة النفي وإرادة النهي مبالغة واضحة.

٧ - ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى (مرسلًا مجملًا).

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ وبين ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ...﴾ الآية.

فائِدة: أصل النسك: العبادة، وسميت ذبيحة الأنعام نسكًا لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى.

---

(١) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١٣٦): وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَيْ: يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ، كَمَا يُحَاسِبُ نَفْسًا وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [الْقَمَرِ: ٥٠].

فائدة ثانية: زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة؛ ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلَاقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... لَمْ تَرْصُدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

قال الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطهر القلوب، وتزكّي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن في الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، ثم حذَّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، وبيَّن لنا عداوته الشديدة.

اللغة: ﴿أَلَدُّ﴾ اللَّدَدُ: شدة الخصومة قال «الطبري»: الألدُّ: الشديد الخصومة، وفي الحديث: «إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إلى الله الألدُّ الخَصِم»(١).

﴿ٱلۡحَرۡثَ﴾: الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿وَٱلنَّسۡلَ﴾ الذريّة والولد، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وسمي نسلًا لأنه ينسُل - يسقط - من بطن أمه بسرعة. ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾ الأنفة والحميَّة. ﴿فَحَسۡبُهُۥ﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيه. ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: الفراش الممهَّد للنوم. ﴿يَشۡرِي﴾: يبيع. ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ طلب. ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وبفتحها بمعنى الصلح، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قَالَ الشَّاعِرُ:

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسِّلْمِ حتى ... رَأَيْتُهُمُ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَا(٢)

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم.
(٢) (ش): السِّلْمُ: الإستِسْلام والانْقِياد، والسِّلْمُ: الإسلام، ومنه قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً﴾، أي الإسلام وَشَرَائِعهُ كلّها.

﴿زَلَلْتُم﴾ الزّلل: الانحراف عن الطريق المستقيم، وأصله في القَدَم، ثم استعمل في الأمور المعنوية، ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظلّة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤية.

سَبَبُ النّزول: ١ - روي أن الأخنس بن شريق أتى النبي ﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه، وكان منافقًا حسن العلانية خبيث الباطن، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وقتل الحُمُر فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ...﴾ الآية وإلى قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ...﴾[1] الآية[2].

٢ - وروي أن صهيبًا الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلًا، وايْمُ الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم، قالوا: جئتنا صعلوكًا لا تملك شيئًا وأنت الآن ذو مال كثير! فقال: أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي؟ قالوا: نعم، فدلّهم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «رَبحَ البَيْعَ صُهَيْب رَبحَ البَيْعَ صُهَيْب» وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ فيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ...﴾[3] الآية[4].

التفسير: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابَك بخلابة لسانه وقوة بيانه، ولكنه منافق كذّاب ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطّلع على القلوب والسرائر ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ أي يُظْهِر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فسادًا، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه [كقوله:]:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً ... وَيَرُوغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان، والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد، فالحرث محل نماء الزروع والثمار، والنسل وهو نتاج

---

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢١٥، و«أسباب النزول» ص ٣٤.

(٢) (ش): أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»وسنده ضعيف جدًّا.

(٣) المرجع السابق.

(٤) (ش): أخرجه الحاكم، وصححه، وسكت عنه الذهبي. وقال الشيخ مقبل بن هادي: الحديث له طرق ... وهي بمجموعها تزيد الحديث قوة وتدل على ثبوته».

الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر وذكِّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح، حملته الأنفة وحميَّةُ الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشًا ومهادًا، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله، طلبًا لمرضاته ورغبةً في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه. . ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه، فلا تأخذوا حكمًا وتتركوا حكمًا، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلًا فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ما ينتظرون شيئًا إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق[1] حيث تنشق السماء وينزل الجبار عَزَّ وَجَلَّ في

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله: ﴿أن يأتيهم الله﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله: ﴿واسأل القرية﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانًا وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى.
(ش): مذهب السلف هو إثبات الصفات وعدم تأويلها وتفويض كيفية الصفة إلى الله تعالى، وليس تفويض معنى الآية كما ذكر المؤلف. فالتفويض في أسماء الله تعالى وصفاته له معنيان: الأول: معنى صحيح، وهو إثبات اللفظ ومعناه الذي يدل عليه، ثم تفويض علم كيفيته إلى الله، فنثبت لله تعالى أسماءه الحسنى، وصفاته العلى، ونعْرف معانيها ونؤمن بها، غير أننا لا نعلم كيْفيتها. فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، استواء حقيقيًّا يليق بجلاله سبحانه، ليس كاستواء البشر، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا؛ ولذا، فإننا نفوض كيفيته إلى الله، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: إثبات صفات الله تعالى، إثباتًا بلا تمثيل ولا تكييف، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾. والمعنى الثاني للتفويض - وهو معنى باطل -: إثبات اللفظ من غير معرفة معناه. فيثبتون الألفاظ فقط، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ثم يقولون: لا ندري معناه، ولا ماذا أراد الله به!.

ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زَجَلٌ من التسبيح يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح[1] ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعًا. والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه وهو أحكم الحاكمين. ثم قال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ أي سلْ يا محمد بني إسرائيل - توبيخًا لهم وتقريعًا - كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي زُيِّنَتْ لهم شهواتُ الدنيا ونعيمُها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود. ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة، فهم في أعلى علّيين وأولئك في أسفل سافلين، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي والله يرزق أولياءه رزقًا واسعًا رغدًا، لا فناء له ولا انقطاع كقوله: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع على من شاء مؤمنًا كان أو كافرًا، برًا أو فاجرًا على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ ذكر لفظ الإثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ «التميم» لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة.

٢ - ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء اللّيِّنَيْن.

٣ - ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلا بعدها أي ما ينتظرون.

٤ - ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ التنكير للتهويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة

---

(١) (ش): جزء من حديث طويل رواه الإمام محمد بن جرير «الطبري» في «تفسيره» «جامع البيان في تأويل القرآن» وضعفه الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه له (٤/ ٢٦٧).

التي تغم على الرائي ما فيها. وقوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ هو عطف على المضارع ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان.

٥ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة.

٦ - ﴿زُيِّنَ... وَيَسْخَرُونَ﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغًا منه مركوزًا في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار.

تنبيه: قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى في رسالته «التدمرية»[1]: «وَصْفُه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصْفه بالمجيء في آيات آخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، أنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه؟ فليُقَل له: كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته»[2].

قال الله تعالى:

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ

---

(١) (ش): ما نقله المؤلف ليس في «التدمرية» لابن تيمية بل هو كلام القاسمي في «تفسيره» «محاسن التأويل» (٢/ ٨٨).

(٢) (ش): في تفسير القاسمي: فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه أو كيف يأتي..؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته..! فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية الموصوف. وقد أطلق غير واحد، ممن حكى إجماع السلف، منهم الخطابيّ: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها مع نفْي الكيفية والتشبيه عنها.

فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المَناسَبَة: ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق يسعى في الأرض فسادًا ويُضل الناس بخلابة لسانه وقوة بيانه، وفريق باع نفسه للحق يبتغي به رضى الله ولا يرجو أحدًا سواه، ولما كان لا بدّ من التنازع بين الخير والشر - ولا بدَّ للحق من سيفٍ مُصْلَتٍ[1] إلى جانبه - لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفعًا للعدوان وردعًا للظلم والطغيان[2].

اللغة: ﴿بَغْيًا﴾ البغيُ: العدوان والطغيان. ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة: التحريك الشديد. ﴿كُرْهٌ﴾ مكروهٌ تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة: الكُره بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر. ﴿وَصَدٌّ﴾ الصدُّ: المنع يقال: صدّه عن الشيء أي منعه عنه. ﴿يَرْتَدِدْ﴾ يرجع والردةُ الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب: الارتداد والردة: الرجوع في الطريق الذي جاء به منه لكن الردَّة تختص بالكفر، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا[3]﴾ [الكهف: ٦٤] ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت وذهبت قال في «اللسان»: حَبِطَ: عَمِلَ عَملًا ثُمَّ أَفْسَدَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩] أي أبطل ثوابهم ﴿يَرْجُونَ﴾ الرجاء: الأمل والطمع في حصول ما فيه نفعٌ ومصلحة[4].

---

(١) (ش): يُقَالُ: أَصْلَتَ السيفَ جَرَّده مِنْ غِمْده، أي من جِرابِه فَهُوَ مُصْلَتٌ. وضَرَبه بِالسَّيْفِ صَلْتًا وصُلْتًا أَي ضَرَبه بِهِ وَهُوَ مُصْلَتٌ. ويُقَالُ: سَيْفٌ مُصْلَتٌ: أي حادٌّ سريع القطع فيمن يضربه.

(٢) (ش): شُرِع الجهاد إعلاءً لكلمة الله تعالى، ودفعًا للعدوان وردعًا للظلم والطغيان، فجهاد الكفار بالقتال نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب. **النوع الأول**: جهاد الدفع: فإذا داهم العدو بلدًا إسلاميًّا، أو قاتل العدو إحدى البلاد الإسلامية، فالجهاد حينئذ واجب، فإن قامت الكفاية بأهل تلك البلاد، فَبِها ونِعْمَت، فالبقية يساندونهم بالمال والدعاء، وإن لم تقُم الكفاية بأهل تلك البلاد، وجب على من كان قريبًا منهم أن يقوم معهم، كلٌّ على قَدر طاقته، فهذا بماله، وهذا بلسانه، وهذا بنفسه وسلاحه. **النوع الثاني**: جهاد الطلب: وهو أن يغزو المسلمون الكفارَ في ديارهم حتى يُسْلِموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ]. وقبل الجهاد يُخَيِّرهم المسلمون بين أمور ثلاثة: إما الإسلام وإما الجزية وإما القتال. وشُرِع هذا النوع من الجهاد للحكم والمصالح العظيمة المترتبة عليه، ولما في تَرْكه من أضرار ومفاسد. فالهدف الرئيس للجهاد هو تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد.

(٣) «مفردات القرآن» للراغب.

(٤) «لسان العرب» مادة رجا.

سبب النّزول: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليترصدوا عيرًا لقريش فيها «عمرو بن الحضرمي» وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهرًا يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معايشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ... ﴾ الآية.

التفسير: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلفوا وتنازعوا ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي بعث الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سببًا لاستحكامه ورسوخه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلةٍ وجهل ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسدًا من الكافرين للمؤمنين ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاء وامتحان واختبار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ أي والحال لم ينلكم مثل ما نال من سبقكم من المؤمنين من المحن الشديدة، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؟ أى أزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر[1] لتناهي الشدة عليهم، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عِيلَ صبرُهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلًا على أن الشدة بلغت منتهاها[2] قال تعالى جوابًا لهم: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ أي ألا فأبشروا فإنه حان أوانه ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ

---

(١) (ش): مع يقينهم به.

(٢) (ش): قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٧٢): «أَيْ: يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، ويَدْعُونَ بقُرْب الْفَرَجِ وَالْمَخْرَجِ، عِنْدَ ضِيقِ الْحَالِ وَالشِّدَّةِ».

ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] ثم قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون؟ وقد نزلت لمّا قال بعض الصحابة: يا رسول الله، ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟[1] ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء، ثم قال تعالى مبينًا حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئًا وفيه كل النفع والخير ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئًا وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيرًا لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شرًا لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه؟ ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرهُم بالله وصدُّهم عن المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته، كلُّ ذلك أعظم وزرًا وذنبًا عند الله من قتل من قتلتم من المشركين، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أنَّ ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبدًا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون

(١) (ش): ضعيف، أخرجه ابن جرير في «جامع البيان».

بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

البَلاَغَة: ١ - ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلفوا فبعث الله النبيين ودلّ على المحذوف قوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

٢ - ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ففيه استفهام إنكاري.

٣ - ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ لمّا تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري والمعنى: لمّا ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد: إذا قال القائل: لم يأتني زيد فهو نفي لقولك أتاك زيد؟ وإذا قال: لما يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقعًا منتظرًا.

٤ - ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ في هذه الجملة عدة مؤكِّدات تدل على تحقق النصر أولًا: بدء الجملة بأداة الاستفتاح «ألا» التي تفيد التأكيد. ثانيًا: ذكر «إنَّ» الدالة على التوكيد أيضًا. ثالثًا: إيثار الجملة الاسمية على الفعلية فلم يقل «ستنصرون» والتعبير بالجملة الاسمية يفيد التأكيد. رابعًا: إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء.

٥ - ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول «كرهٌ» مكان «مكروه» للمبالغة كقول الخنساء:

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ،...[1]

٦ - ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا... وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ «المقابلة» فقد قابل بين الكراهية والحب، وبين الخير والشر.

٧ - ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ طباق بالسلب.

فَائِدَة: عبّر تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيّين ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيّين وإن تعددت هي في لبّها وجوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ [الشورى:١٣] الآية.

تنبيه: روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ

---

(١) (ش): قالت الخنساء في قصيدة ترثي بها أخاها صخرًا.

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

ومعنى: (ترتع) ترعى. تصف ناقة أو بقرة فقدَتْ ولدها، فكلما غفلت عنه رتعت، فإذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت، فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرًا.

الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

قال الله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

المنَاسَبَة: لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخُلق الكريم، ولا بدّ للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائهم على أسسٍ متينة وتبقى صرحًا شامخًا لا تؤثر فيه الأعاصير.

اللغَة: ﴿ٱلْخَمْرِ﴾ المسكر من الأشربة سميت خمرًا؛ لأنها تستر العقل وتغطيه، ومنه خمّرتُ الإناء أي غطيته. ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كدّ ولا تعب، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى. ﴿إِثْمٌ﴾ الإثم: الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ «الإثم» لأن شربها سبب في الإثم قَالَ الشَّاعِرُ:

شَـرِبْـتُ الْإِثْـمَ حَتَّى ضل عَقْلِي ... كَـذَاكَ الْإِثْـمُ يَـذْهَـبُ بِـالْـعُـقُـولِ

﴿ٱلْعَفْوَ﴾ الفضل والزيادة على الحاجة. ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة، وأصل العنت: المشقة. ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ الأَمَةُ: المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء. ﴿ٱلْمَحِيضِ﴾ مصدر بمعنى الحيض كالمعيش بمعنى العيش، وأصل الحيض: السيلان يقال:

حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي: سألت ويقال للمرأة: حائض وحائضة وأنشد الفراء:

كَحَائِضَةٍ يُزْنَى بِهَا غَيْرَ طَاهِرِ ...

﴿حَرْثٌ﴾ الحرث: إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب، وقال الجوهري: الحرث: الزرع، والحارث الزارع ومعنى حرث، أي: مزرعٌ ومنبتٌ للولد على سبيل التشبيه[1]. ﴿عُرْضَةً﴾ مانعًا وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرضة، ولهذا يقال للسحاب: عارض لأنه يمنع رؤية الشمس. ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواء كان كلامًا أو غيره ولغو الطائر: تصويته.

سَبَبُ النّزول: أ - جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبةٌ للعقل مسلبةٌ للمال فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ الآية[2].

ب - عن ابن عباس قال: لمّا أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ...﴾ الآية[3].

ج - عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى . .﴾ الآية[4].

التفسير: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي قل لهم إنِ في تعاطي الخمر والميسر ضررًا عظيمًا وإثمًا كبيرًا ومنافع مادية ضئيلة ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي وضررهما أعظم من نفعهما؛ فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر، وما يجرُّه القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين، كلُّ ذلك محسوس

---

(١) «الصحاح للجوهري» مادة حرث.

(٢) (ش): عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى الْبَقَرَةِ فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى النِّسَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فَكَانَ مُنَادِى رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلاَةَ نَادَى لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِى الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِى فِى الْمَائِدَةِ فَدُعِىَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا. (رواه النسائي، وصححه الألباني).

(٣) (ش): (حسن لغيره، رواه أبو داود والنسائي). وتكملته: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم.

(٤) (ش): رواه مسلم، وأبو داود.

مشاهد، وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم؟ قل لهم: أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي كما يبين لكم الأحكام يبيّن لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي لتتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو أصلح، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم؟ فقل لهم: مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين، وأخوة الدين أقوى من أخوّة النسب، ومن حقوق هذه الأخوّة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلًّا بعمله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدَّد عليكم ولكنه يسّر عليكم الدين وسهّله رحمة بكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم فيما يشرّع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذرًا من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تتزوّجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي ولا تُزوِّجوا بناتكم من المشركين - وثنيّين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي ولأن تزوجوهنَّ من عبد مؤمن خير لكم من أن تزوجوهن من حرّ مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حُرِّمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب. ثم بيّن تعالى أحكام الحيض فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم؟ فقل لهم: إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة

فيه أذى للزوجين ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ أي لا يجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن. والمرادُ التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة[1] ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي فإذا تطهَّرن بالماء فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم، وهو مكان النسل والولد القُبُل لا الدبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي يحبُّ التائبين من الذنوب، المتنزهين عن الفواحش والأقذار ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾ أي نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره قال ابن عباس: اسق نباتك من حيث ينبت. ومعنى ﴿أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ أي كيف شئتم قائمةً وقاعدةً ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث «الفرج» وهو رَدٌّ لقول اليهود: إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دبرها جاء الولد أحول ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخرًا في الآخرة ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي لا تجعلوا الحلف بالله سببًا مانعًا عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم: قد حلفتُ بالله ألّا أفعله وأريد أن أبرّ بيميني بل افعلوا الخير وكَفِّروا عن أيْمانكم[2] قال ابن عباس: لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي لا تجعلوه تعالى سببًا مانعًا عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن رواحة» حين حلف ألا يكلّم ختنه «النعمان بن بشير» ولا يصلح بينه وبين أخته[3] ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم. ثم قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي لا يؤاخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم: بلى والله، ولا والله لا يقصد به اليمين ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الإيمان إذا حنثتم فيها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة.

البَلاَغَة: ١ - ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر.

---

(١) (ش): المحرم هو الجماع فقط كما تقدم.

(٢) وقيل المعنى: لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفًا لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير، أو حقير إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاف لا يكون برًّا ولا تقيًّا.

(٣) (ش): ضعيف، ذكره البغوي في «معالم التنزيل»، والواحدي في «أسباب النزول». والخَتَن: أقرب أقرباء المرأة كأبيها وأخيها. و زوج الابنة أو الأخت.

٢ - ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ «الإطناب».

٣ - ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجملٌ.

٤ - ﴿ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ في الآية طباقٌ بين كلمة «المفسد» و «المصلح» وهو من المحسنات البديعية.

٥ - ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة «النار» وكلمة «الجنة».

٦ - ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغًا، وأصله الحيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم: عليٌّ أسَدٌ.

٧ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ كناية عن الجماع.

٨ - ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ على حذف مضاف، أي: موضع حرث، أو على سبيل التشبيه، فالمرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات الخارج، فالحرث بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة.

الفوَائِد: الأولى: تسمى الخمر أم الخبائث؛ لأنها سبب في كل فعل قبيح، روى النسائي عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبد فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باب أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت: إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمر كأسًا أو تقتل هذا الغلام، قال فاسقيني من هذه الخمر كأسًا فسقته كأسًا فقال: زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه».

الثانية: كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال؟ والجواب أنّ المراد بالمنافع في الآية «المنافع المادية» حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش، ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبّر عنها الشاعر بقوله:

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا ... وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ [1]

قال «القرطبي»: وشارب الخمر يصير ضُحكةً للعقلاء فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه حتى رُئي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول: اللهمّ اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، ورئي بعضهم والكلب يلحس وجهه وهو يقول: أكرمك الله كما أكرمتني[2].

---

(١) (ش): يُنَهْنِهُنَا: النَّهْنَهَةُ: الكف والمنع.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٥٧.

الثالثة: قال الزمخشري: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[1].

قال الله تعالى:

لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

المنَاسَبَة: ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمّة وتحلُّ عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبّه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدّين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرّم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات، ثم بيّن في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء، والطلاق، والخلع، وبيّن العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض بنيان الأسرة.

اللغَة: ﴿يُؤۡلُونَ﴾ الإيلاء لغة: الحلف يقال: آلى يؤالي إيلاءً قَالَ الشَّاعِرُ:

فَآلَيْتُ لَا أَنْفَكُّ أَحْدُو قَصِيدَةً ... تَكُونُ وَإِيَّاهَا بِهَا مَثَلًا بَعْدِي

وفي الشرع: اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تَرَبُّصُ﴾ التربص: الانتظار، ومنه ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١] أي: انتظروا. ﴿فَآءُو﴾ الفيء: الرجوع، ومنه قيل للظلّ: فيءٌ لأنه يرجع بعد أن تقلص قال الفراء: العرب تقول: فلان سريع الفيء أي سريع الرجوع بعد الغضب، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَفَاءَتْ وَلَمْ تَقْضِ الَّذِي أَقْبَلَتْ لَهُ ... وَمِنْ حَاجَةِ الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ قَاضِيَا

(١) «الكشاف» ١/ ٢٠٢.

﴿قُرُوٓءٍ﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطهر فهو من الأضداد وأصل القرء: الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في «القاموس»: القَرْءُ بالفتح ويضم: الحيضُ والطهرُ والوقت، وجمع الطهر قروءٌ، وجمع الحيض أقراءٌ. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ جمع بعل ومعناه الزوج. ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخٗا﴾ [هود: ٧٢] والمرأة بعلة. ﴿دَرَجَةٞ﴾ الدرجة: المنزلة الرفيعة. ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ مصدر طلقتُ المرأة ومعنى الطلاق: حلُّ عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلية يقال: ناقة طالق أي: مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعٍ، فسميت المرأة المخلَّى سبيلها طالقًا لهذا المعنى. ﴿تَسۡرِيحُۢ﴾ التسريح: إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض، وسرَّح الماشية أرسلها، قال الراغب: والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل[1].

سَبَبُ النّزول: كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل لامرأته فقال لها: «لا آويك ولا أدَعُك تحلّين». قالت: وكيف؟ قال: «أطلّقك فإذا دنا مُضِيُّ عدتك راجَعْتُك»، فشكت المرأة أمْرها للنبيّ ﷺ فأنزل الله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الآية[2].

التفسير: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖ﴾ أي للذين يحلفون ألّا يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء؛ فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي وإن صمّموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء؛ فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنيّاتهم، والمراد من الآية أنّ الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمُضِيِّ تلك المدة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي: ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق، فإن امتنع عنهما طلّق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء. ثم قال تعالى مبينًا أحكام العدّة والطلاق الشرعي ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ أي الواجب على المطلقات المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حِيَض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ [الأحزاب: ٤٩] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن

(١) «المفردات» ص ٢٢٩.

(٢) (ش): أخرجه مالك في «الموطأ» والترمذي، وضعفه الألباني.

من حبل أو حيض استعجالًا في العدة وإبطالًا لحق الزوج في الرجعة ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي إن كنَّ حقًا مؤمنات بالله ويخشَيْن من عقابه، وهذا تهديد لهنَّ حتى يخبرن بالحق من غير زيادة ولا نقصان، لأنه أمر لا يُعلم إلاّ من جهتهنَّ ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ وأزواجهن أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، بالمعروف الذي أمر تعالى من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي وللرجال على النساء ميزةٌ وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليفٍ لا تشريف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب ينتقم ممن عصاه، حكيم في أمره وتشريعه ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئًا ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر الناس عنها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئًا ولو قليلًا ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها ممّا لم يشرعه الله ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي من خالف أحكام الله فقد عرَّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه، بعد أن يذوق عُسَيْلَتَها وتذوق عُسَيْلَتَه كما صرّح به الحديث الشريف[1]، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثًا لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد انقضاء العدّة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي تلك

(١) (ش): رواه البخاري ومسلم. العُسَيْلَة: تصغير عسل والمراد لذة الجماع.

شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور[١].

البَلاَغَة: ١ - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد.

٢ - ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبرٌ في معنى الأمر وأصل الكلام وليتربصْ المطلقاتُ، قال الزمخشري: وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه ممَّا يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجودًا، وبناؤه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد[٢].

٣ - ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتهييج وتهويل الأمر في نفوسهن.

٤ - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول. والمعنى: لهنّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق، وفيه من المحسنات البديعية أيضًا الطباق بين «لهنَّ» و «عليهنَّ» وهو طباقٌ بين حرفين.

٥ - ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ بين لفظ «إمساك» ولفظ «تسريح» طباقٌ أيضًا.

٦ - ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد.

٧ - ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصر صفة على موصوف.

فَائِدَة: أول خلع كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) «أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله، لا يجمع الله رأسي ورأسه شيءٌ أبدًا، والله ما أعيب عليه في خلقٍ ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها عليه السلام: «أَتَرُدِّينَ عَلَيهِ حَدِيقَتَهُ؟» قالت: نعم ففرّق بينهما»[٣].

لطيفَة: روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهما أنه قال: إني لأحب أن أتزين لامرأتي كما تتزين لي لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمعروف﴾.

قال الله تعالى:

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ

---

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا «روائع البيان» ١/ ٣٤٣.

(٢) «الكشاف» ١/ ٢٠٥.

(٣) (ش): رواه البخاري

مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

المنَاسَبَة: لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضّح طريقته وشروطه وآدابه، وتنهى عن الإيذاء والإضرار، فوجه المناسبة إذًا ظاهر.

اللغَة: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن من الانتهاء من العدة. ﴿ضِرَارًا﴾ أي بقصد الإضرار، قال القفال: الضرار هو المضارّة كقوله: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة: ١٠٧] أي ليضاروا المؤمنين. ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ العَضْل: المنع والتضييق يقال: أعضل الأمر أي أشكل وضاقت فيه الحيل، وداء عُضال، أي: عسير أعيا الأطباء، قال الأزهري: وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه[1]. ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ يوصى ويؤمر به. ﴿أَزْكَىٰ﴾ أنمى وأنفع يقال: زكا الزرع إذا نما بكثرةٍ وبركة. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ الطهارة: التنزه عن الدَّنس والمعاصي.

سَبَبُ النّزول: روي أنّ «معقل بن يسار» زوَّج أخته رجلًا من المسلمين على عهد النبيّ ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدّة، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطّاب فقال له: يا لُكَع، أي «يا لئيم» أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها!! والله لا ترجع إليك أبدًا فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعًا لربي وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك[2] [3].

التفسير: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقًا رجعيًّا وقاربن انقضاء العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فراجعوهنّ من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدّة عليهن ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهنّ لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء، وفيه زجرٌ لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدّة

---

(١) «تهذيب اللغة» مادة عضل.

(٢) رواه البخاري وانظر التاج ٤/ ٦٣.

(٣) (ش): عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً لَمْ يُرَاجِعْهَا حَتَّى انْقَضَتِ الْعِدَّةُ فَهَوِيَهَا وَهَوِيَتْهُ ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَّابِ فَقَالَ لَهُ: يَا لُكَعُ، أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَهَا فَطَلَّقْتَهَا وَاللهِ لاَ تَرْجِعُ إِلَيْكَ أَبَدًا آخِرُ مَا عَلَيْكَ قَالَ: فَعَلِمَ اللهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ سَمْعًا لِرَبِّي وَطَاعَةً ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ أُزَوِّجُكَ وَأُكْرِمُكَ. (رواه الترمذي، وصححه الألباني).

أما رواية البخاري: فعَنِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لاَ وَاللهِ لاَ تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لاَ بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فَقُلْتُ الآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ . قَالَ فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ .

يراجعها للإضرار بها ليطوّل عليها العدّة لا للرغبة فيها ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لأنه عرّضها لعذاب الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءًا بها بمخالفتكم لها ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنّة المطهّرة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي يرشدكم ويذكّركم بكتابه وهدي رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين، وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما إلى العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون.

البَلاَغَة: ١ - ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أُطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل؛ لأنه لو انقضت العدّة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

٢ - ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنّة من أفراد هذه النعم.

٣ - ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بين كلمة «اعلموا» و «عليم» من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق.

٤ - ﴿يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ يراد بأزواجهن «المطلقين» لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان.

فَائِدَة: قال الإمام الفخر: الحكمة في إثبات حق الرجعة أنّ الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشقُّ عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة

---

(١) (ش): أوضار: أوساخ.

مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده[1].

قال الله تعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعَضْل، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع؛ لأنّ الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلّق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاع انتقامًا من الزوج وإيذاءً له في ولده، لذلك وردت هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهم، ثم أعقب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدَّة فيه رعايةً لحق الزوج، كما ذكر تعالى موضع خطبة المرأة في حالة العدّة، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق.

اللغَة: ﴿فِصَالًا﴾ الفِصال والفَصْل: الفطام سمي به؛ لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات، قال المبرّد: الفِصال أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فِصال كالقِتال والضراب ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ التشاور: استخراج الرأي ومثله المشاورة؛ والمشورة مأخوذ من الشَّوْر وهو استخراج العسل. ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون وهذا الفعل لا يستعمل منه الماضي ولا المصدر. ﴿عَرَّضْتُم﴾ التعريض: الإيماء والتلويح من غير كشفٍ

(١) «التفسير الكبير» ٦/ ١٠٥.

وإظهار، مأخوذ من عُرْضِ الشيء، أي: جانبه كقول الفقير للمحسن: جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خِطْبَةِ﴾ بكسر الخاء طلب النكاح، وبالضم الموعظة كخُطبة الجمعة والعيدين. ﴿أَكْنَنتُمْ﴾ سترتم وأضمرتم والإكنان: السرُّ والخفاء. ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ من العقد وهو الشدُّ، وفي المثل «يا عاقد اذكر حلًّا»[1] قال الراغب: العُقدة اسم لما يعقد من نكاح أو يمين أو غيرهما. ﴿حَلِيمٌ﴾ يمهل العقوبة فلا يعجّل بها للعاصي. ﴿الْمُقْتِرِ﴾ الفقير يقال: أقتر الرجل إذا افتقر.

سَبَبُ النّزول: روي «أن رجلًا من الأنصار تزوج امرأة من بني حنيفة ولم يسمّ لها مهرًا ثم طلّقها قبل أن يمسَّها فنزلت الآية ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فقال له النبيّ ﷺ «مَتِّعْها وَلوْ بِقَلَنْسُوَتِكَ»[2] [3].

التفسير: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن لمدة سنتين كاملتين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيام ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلّف نفسًا إلا وسعها ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ أي لا يضرَّ الوالدان بالولد فيفرِّطا في تعهده ويقصّرا في ما ينبغي له، أو يضارَّ أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضرّ أباه بتربيته، وينتزع الأب الولد منها إضرارًا بها مع رغبتها في إرضاعه ليغيظ أحدهما صاحبه، قاله مجاهد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي وعلى الوارث مثلُ ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، والمراد به وارثُ الأب، وقيل: وارثُ الصبي، والأول اختيار «الطبري» ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعةً لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي على النساء اللواتي

---

(١) (ش): أي إنّك ستحلّها إذا استقللت، فلا تحكم شدّها.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٠٢.

(٣) (ش): ضعيف جدًّا، ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير». والقَلَنْسُوَة: غطاء للرأس.

يموت أزواجهن أن يمكثن في العدّة أربعة أشهر وعشرة أيام حدادًا على أزواجهنَّ وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها وضع الحمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهنّ بالزواج وفعل ما أباحه لهنّ الشرع من الزينة[1] والتعرُّض للخُطّاب[2] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفّى عنهن أزواجهن في العدّة، بطريق التلميح لا التصريح، قال ابن عباس: كقول الرجل: وددتُ أنّ الله يسَّر لي امرأةً صالحة، وإن النساء لمن حاجتي ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي ولا إثم عليكم أيضًا فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهنّ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج، فاذكروهنَّ ولكنْ لا تواعدوهنَّ بالنكاح سرًّا إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقرّه لكم الشرع ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه. ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل المساس فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس «الجماع» وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهرًا، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي فإذا طلقتموهن فادفعوا لهنَّ المتعة تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لوحشة الفراق، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعًا بالمعروف حقًّا على المؤمنين المحسنين ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهنَّ مهرًا معينًا فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمّى لهن لأنه طلاقٌ قبل المسيس ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلّقة حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحق إذا كانت صغيرة، وقيل: هو الزوج لأنه هو الذي يملك عُقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير،

(١) (ش): أي داخل بيتها . فليس المعنى أن تخرج إلى الأسواق والطرقات متجملة سافرة الوجه.
(٢) (ش): فبعد انقضاء عدتها، يراها الخُطَّاب داخل بيتها.

وقال الزمخشري: القول بأنه الوليُّ ظاهر الصحة[1] ﴿وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء، قال ابن عباس: أقربهما للتقوى الذي يعفو ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودّة والإحسان والجميل بين الزوجين، فإذا كان الطلاق قد تمَّ لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعًا لروابط المصاهرة ووشائج القربى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ ﴾ أمر أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالآية السابقة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

٢ - ﴿أَنَّ تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي يسترضعوا المراضع لأولادكم، كما أنّ فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأنّ ما قبله ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء.

٣ - ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ ذكر العزْم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح، فإذا نهي عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى.

٤ - ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنّى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديبًا للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به.

٥ - ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾ و﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب.

٦ - ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة.

الفَوائِد: الأولى: التعبير بلفظ «الوالدات» دون قوله «والمطلقات» أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد، فحصول الطلاق لهنَّ لا ينبغي أن يحرمهنَّ عاطفة الأمومة.

الثانية: أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كلٍّ من الأبوين في قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ بِوَلَدِهَا﴾ و﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه، فالولد ليس أجنبيًا عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سببًا للإضرار به.

الثالثة: الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيحاش الطلاق قال ابن عباس: إن كان معسرًا متعها بثلاثة أثواب، وإن كان موسرًا متعها بخادم.

الرابعة: روي أنّ الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة: «متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق» وسبب طلاقه إيّاها ما روي أنه لما أصيب عليٌّ كرّم الله وجهه وبويع الحسن

---

(١) هذا القول مروي عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري: وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بألطف بيان فانظرها في «الكشاف» ١/ ٢١٧.

بالخلافة قالت له: لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين! فقال: يُقتل عليٌّ وتظهرين الشماتة؟ اذهبي فأنت طالق ثلاثًا، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك، فلما أخبره الرسول بكى وقال: لولا أنني طلقتها ثلاثًا لراجعتها[1].

قال الله تعالى:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

المنَاسَبَة: توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة، وهي أنّ الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إذا حزبه همٌّ فزع إلى الصلاة. فالطلاق يولّد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية.

اللغَة: ﴿حَٰفِظُواْ﴾ المحافظة: المداومة على الشيء والمواظبة عليه. ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾ مؤنث الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله، قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَمْدَحُ الرسول ﷺ:

يَا أَوْسَطَ النَّاسِ طُرًّا فِي مَفَاخِرِهِمْ ... وَأَكْرَمَ النَّاسِ أُمًّا بَرَّةً وَأَبَا[2]

﴿قَٰنِتِينَ﴾ أصل القنوت في اللغة: المداومة على الشيء وقد خصّه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]. ﴿فَرِجَالًا﴾ جمع راجِل وهو القائم على القدمين قال الراغب: اشتُقَّ من الرِّجْل راجِلٌ للماشي بالرِّجْل ويقال: رجُلٌ راجِلٌ أي قويٌّ على المشي[3]. ﴿رُكْبَانًا﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما.

التفسير: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾

---

(١) «القرطبي» ٣/ ٢٠٢.

(٢) (ش): طُرًّا أي جَمِيعًا.

(٣) «مفردات الراغب» مادة رجل.

أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع، أي: قوموا لله في صلاتكم خاشعين ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍ أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣] والذكرُ في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان، قال الزمخشري: المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن.

ثم قال تعالى مبينًا أحكام العدة ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم على هؤلاء أن يوصوا قبل أن يُحتضروا بأن تمتَّع أزواجهم بعدهم حولًا كاملًا - يُنْفق عليهنَّ من تركته ولا يُخرجن من مساكنهنَّ - وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي فإن خرجن مختارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب[1] والتعرُّض للخُطّاب[2] ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يُمتِّعوا المطلقات بقدر استطاعتهم جبرًا لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌّ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبيّن الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ عطف خاص على عام؛ لبيان مزيد فضلها.

٢ - ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ بين لفظ (خفتمخ) و(أمنتم) طباق وهو من المحسنات البديعية، قال أبو السعود: وفي إيراد الشرطية بكلمة «إن» المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف، وإيراد الثانية بكلمة «إذا» المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار[3].

تنبيه: الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في «الصحيحين»: «شَغَلُونَا عن الصَّلاةِ الوُسْطَى

---

(١) (ش): أي داخل بيتها . فليس المعنى أن تخرج إلى الأسواق والطرقات متجملة سافرة الوجه.

(٢) (ش): فبعد انقضاء عدتها، يراها الخُطَّاب داخل بيتها.

(٣) «تفسير أبي السعود» ١/ ١٨٠.

صَلاَةِ العَصْرِ مَلأَ الله قُلُوبَهُم وَبُيُوتَهُم نَارًا» وفي الحديث: «الَّذِي تَفُوتُه صَلاةُ العَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِر أَهْلُهُ وَمَالُهُ» أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعَى لإصلاحها[1] باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تَنْشُد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت

(١) (ش): قول المؤلف عن الله أنه سعَى لإصلاح الأسرة تعبير غير مناسب في حق الله لأنه لم يَرِدْ وَصْفُ الله بالسعي.

في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله.

اللغة: ﴿أُلُوفٌ﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة. ﴿حَذَرَ﴾ خشية وخوف ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ القبض: ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقتير والبسط ضدُّه والمراد به التوسيع قال أبو تمام:

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوَ انَّهُ
دَعَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنَامِلُه

﴿ٱلْمَلَإِ﴾ الأشراف من الناس سمّوا بذلك لأنهم يملؤون العين مهابةً وإجلالًا. ﴿فَصَلَ﴾ انفصل من مكانه يقال: فصل عن الموضع انفصل عنه وجاوزه. ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم. ﴿يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون ويعلمون. ﴿فِئَةٍ﴾ الفئة: الجماعة من الناس لا واحد له كالرهط والنفر. ﴿أَفْرِغْ﴾ أفرغ الشيء صبَّه وأنزله.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي خوفًا من الموت وفرارًا منه، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفًا ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفًا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم «حزقيل» فعاشوا بعد ذلك دهرًا، وقيل: هربوا من الطاعون فأماتهم الله. قال ابن كثير: وفي هذه القصة عبرةٌ على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصّرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويجحدون ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أنّ الله سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بنيّاتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها، وكما أنّ الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرّب أجلًا ولا يبعده ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافًا كثيرة؟ لأنه قرضٌ لأغنى الأغنياء ربّ العالمين جلّ جلاله وفي الحديث «مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُومٍ»[1] [2] ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أي يقتّر على من يشاء ويوسّع على

---

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول، وانظر «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٢.

(٢) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَنْزِلُ اللهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ. ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُومٍ؟. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

من يشاء ابتلاءً وامتحانًا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي حين قالوا لنبيِّهم «شمعون» - وهو من نسل هارون[1] أقم لنا أميرًا واجعله قائدًا لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي قال لهم نبيّهم: أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي أيُّ سببٍ لنا في ألاّ نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد؟ قال تعالى بيانًا لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، قال «القرطبي»: وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدَّعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبنت وانقادت لطبعها[2] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصيانًا لأمره تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي أخبرهم نبيّهم بأنَّ الله تعالى قد ملَّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميرًا عليهم ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي قاموا معترضين على نبيّهم كيف يكون ملكًا علينا والحال أننا أحقُّ بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكًا علينا؟ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي أجابهم نبيّهم على ذلك الاعتراض فقال: إنّ الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، والعمدة في الاختيار أمران: العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظ وافر، قال ابن كثير: ومن هاهنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم، وشكل حسن، وقوّةٍ شديدة في بدنه ونفسه[3]، ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرثٍ أو مال ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهلٌ له فيعطيه إياه.. ولمّا طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ

(١) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل
(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٤٥.
(٣) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٢٤.

ٱلتَّابُوتُ﴾ أي يردَّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم، وهو كما قال الزمخشري: صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: في التابوت السكون والطمأنينة والوقار، وفيه أيضًا بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة، قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعوه بين يدي طالوت والناس ينظرون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن في نزول التابوت لَعَلامَةٌ واضحة أنّ الله اختاره ليكون ملكًا عليكم إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفًا أخذ بهم في أرض قفرة فأصابهم حرٌّ وعطشٌ شديد ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي من شرب منه فلا يصحبني - وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب - ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ أي لكن من اغترف قليلًا من الماء ليبلَّ عطشه وينقع غُلَّتَه فلا بأس بذلك[1]، فأذن لهم برشفةٍ من الماء تذهب بالعطش ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش، قال السدي: شرب منه ستة وسبعون ألفًا وتبقّى معه أربعة آلاف ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم واعتراهم الخوف فقال فريق منهم ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي قال الذين يعتقدون بلقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي كثيرًا ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهًا لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرّب على الحروب ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولًا: ربنا أفرغ علينا صبرًا يعُمُّنا في جمْعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي ثبتنا في ميدان الحرب

(١) (ش): نَقَعَ الماءُ غُلَّتَه أي أَرْوى عَطَشَه.

ولا تجعل للفرار سبيلًا إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إخبارًا عنهم: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابة لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ أي وقتل داود - وكان في جيش المؤمنين مع طالوت - رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوّة وعلّمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه، قال ابن كثير: كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله من النبوّة العظيمة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي لولا أن يدفع الله شرّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة، لأنّ الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ذو تفضل وإنعام على البشر حيث لم يُمَكِّن للشر من الاستعلاء ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عزَّ وجلَّ.

البَلاَغَة: ١ - قال أبو حيان: تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أمورًا كثيرة منها الاستفهام الذي أُجري مجرى التعجب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ والحذف بين ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ أي فماتوا ثم أحياهم، والطباق في قوله: ﴿مُوتُواْ﴾ و ﴿أَحۡيَٰهُمۡ﴾ كذلك في قوله: ﴿يَقۡبِضُ﴾ و ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ والتكرار في قوله: ﴿فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ و ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ والالتفات في ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ شبّه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه، والتجنيس المغاير في قوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ وقوله: ﴿أَضۡعَافًا[1]﴾.

٢ - ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبّه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب بردًا وسلامًا وهدوءًا واطمئنانًا.

الفوَائِد: الأولى: أسند الاستقراض إلى الله في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيبًا في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جلّ وعلا في الحديث القدسي: «ابن آدم مرضتُ فلم تعدني» و «استطعمتك فلم

(١) «البحر المحيط» ٣/ ٢٥٣.

تطعمني» و«استسقيتك فلم تسقني» الحديث الذي رواه الشيخان[١].

الثانية: روي أنه لمّا نزلت الآية الكريمة «جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: وإنّ الله ليريد منّا القرض؟ قال: «نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاح!» قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - أي بستاني وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فنادها: يا أُمَّ الدحداح قالت: لبّيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عزَّ وجلَّ»[٢]، وفي رواية قالت: ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها[٣].

الثالثة: قال البقاعي: ولعلّ ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبيّ ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته؛ لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل[٤].

قال الله تعالى:

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

المناسبة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل، وتفضيل

---

(١) (ش): قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ). والحديث ليس في «صحيح البخاري». وإنما رواه البخاري في كتاب «الأدب المفرد».

(٢) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود

(٣) (ش): ضعَّفه البوصيري والألباني. عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ لِفُلاَنٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأْمُرْهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِهَا إِيَّاهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي قَدِ ابْتَعْتُ النَّخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ، فَقَدْ أَعْطَيْتُكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَاحٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مِرَارًا. قَالَ: فَأَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بِعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رَبِحَ الْبَيْعُ. أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا. (رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ والحاكم وصححه، والألباني). «عذق» قيل: بالكسر الغصن، وبالفتح النخلة أو الحائط، والظاهر أن المراد ها هنا النخلة. «رداح»: ثقيل لكثرة ما فيه من الثمار.

(٤) «محاسن التأويل» ٣/ ٦٥٠.

داود عليهم بالملك والنبوّة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أنّ المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر.

اللغة: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه من التأييد بمعنى التقوية. ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ القدس: الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم. ﴿خُلَّةٌ﴾ الخُلَّة: الصداقة والمودة سميت بذلك؛ لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل. ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلًا عونه.

التفسير: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم يا محمد هم رسل الله حقًّا، وقد فضّلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي منهم من خصّه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي ومنهم من خصّه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى ابن مريم ﴿وَلَوْ شَآءَ الله مَا اقتتل الذين مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاؤوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أنّ الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أي ولكنَّ الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿وَلَوْ شَآءَ الله مَا اقتتلوا ولكن الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكنّ الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكلُّ ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إيّاه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمالٍ تقدمونه فيكون كالبيع، ولا تجدون صديقًا يدفع عنكم العذاب، ولا شفيعًا يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله ربّ العالمين ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافرًا، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب.

البَلاَغة: ١ - ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ الإشارة بالعبيد لبعيد مرتبتهم في الكمال.

٢ - ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ...﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة: التقسيم وكذلك في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ وبين لفظ «آمن» و «كفر» طباقٌ.

٣ - الإطناب وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ حيث كرر جملة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤ - ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصر صفة على الموصوف، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل[1].

فَائِدَة: روي عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون» ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله.

تنبيه: يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال: أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] مكان «ومن لم يحج» ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

قال الله تعالى:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

المنَاسَبة: لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع، فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعًا جاءوا بدعوةٍ واحدة هي «دعوة التوحيد» فرسالتهم واحدة ودينهم واحد، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه.

اللغَة: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنَةٌ﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قَالَ الشَّاعِرُ:

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ[2]

---

(١) (ش): ضمير الفصل «هُمْ».

(٢) (ش): رنق النوم في عينه: خالطها.

﴿يَـُٔودُهُۥ﴾ يُثْقِلُه ويُتْعِبُه ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه[1] ﴿إِكْرَاهَ﴾ الإكراه: حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ مؤنث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿ٱنفِصَامَ﴾ الانفصام: الانكسار قال الفراء: الانفصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم: الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار ببينونة.

سَبَبُ النّزول: كان لرجل من الأنصار ابنان تنصّرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفرٍ من التجار يحملون الزيت، فلزمهما أبوهما وقال: لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[2]. الآية[3].

التفسير: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد، ذو الحياة الكاملة، الباقي الدائم الذي لا يموت، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ والتدبير ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم كما ورد في

---

(١) (ش): لم يذكر المؤلف علو الذات الذي أثبته في تفسيره لآيات الاستواء، حيث ذكر أن الله سبحانه وتعالى فوق العرش، وأثبت لله ﷻ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف كما هو مذهب السلف، وفسَّر الاستواء بالعلوّ والاستقرار وأنه سبحانه وتعالى عَلا فوق العرشِ عُلُوًّا يليق بجلاله، وأنا لا نعلم كيفية الاستواء. من أسماء الله الحسنى (العلِيّ الأعلَى) وذلك دال على أن جميع معاني العلو ثابتة لله من كل وجه، فله علو الذات، وهو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة متكلم بأحكامه القدرية، وتدبيراته الكونية، وبأحكامه الشرعية. وأما علو القدر فهو علو صفاته، وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته. وله علو القهر فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره، ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

(٢) «القرطبي» ٣/ ٢٨٠.

(٣) (ش): ضعيف، ذكره البغوي في «معالم التنزيل»، والواحدي في «أسباب النزول».

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلاتًا فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ فَقَالُوا: لاَ نَدَعُ أَبْنَاءَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: الْمِقْلاَتُ الَّتِي لاَ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ. (رواه أبو داود، وصححه الألباني).

(مِقْلَاتًا) الْمَرْأَةُ الَّتِي لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ . (فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا) أَيْ تَنْذُرُ (أَنْ تُهَوِّدَهُ) إِذَا عَاشَ الْوَلَدُ جَعَلَتْهُ فِي الْيَهُودِ (فَلَمَّا أُجْلِيَتْ) بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ، جَلَا عَنِ الْوَطَنِ يَجْلُو، وَأَجْلَى يُجْلِي: إِذَا خَرَجَ مُفَارِقًا (بَنُو النَّضِيرِ) قَبِيلَةٌ مِنْ يَهُودٍ (فَقَالُوا) أَيْ الْأَنْصَارُ (لَا نَدَعُ) أَيْ لَا نَتْرُكُ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَن انْتَقَلَ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكٍ إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ قَبْلَ مَجِيءِ دِينِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ يُقَرُّ عَلَى مَا كَانَ انْتَقَلَ إِلَيْهِ وَكَانَ سَبِيلُهُ سَبِيلَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْهُ وَجَوَازِ مُنَاكَحَتِهِ وَاسْتِبَاحَةِ ذَبِيحَتِهِ.

الحديث «إِنَّ اللهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»[١]، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع ما في السماوات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير: وهذا بيان لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي لا يعلمون شيئًا من معلوماته إلا بما أعلمهم إيّاه على ألسنة الرسل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أحاط كرسيّه بالسماوات والأرض لبسطته وسعته، والسماواتُ السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاة، وروي عن ابن عباس ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فأخبر أن علمه وسع كل شيء[٢] وقال الحسن البصري: الكرسي هو العرش قال ابن كثير: والصحيح

---

(١) (ش): رواه مسلم.
(وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ) مَعْنَاهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَنَامُ وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ النَّوْمُ فَإِنَّ النَّوْمَ انْغِمَارٌ وَغَلَبَةٌ عَلَى الْعَقْلِ يَسْقُطُ بِهِ الْإِحْسَاسُ وَاللهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي حقه جل وعلا. (يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ): الْقِسْطُ الْمِيزَانُ وَسُمِّيَ قِسْطًا لِأَنَّ الْقِسْطَ الْعَدْلُ وَبِالْمِيزَانِ يَقَعُ الْعَدْلُ. وَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ بِمَا يُوزَنُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُرْتَفِعَةِ وَيُوزَنُ مِنْ أَرْزَاقِهِمُ النَّازِلَةِ وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِمَا يُقَدَّرُ تَنْزِيلُهُ فَشُبِّهَ بِوَزْنِ الْمِيزَانِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْقِسْطِ الرِّزْقُ الَّذِي هُوَ قِسْطُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَخْفِضُهُ فَيُقَتِّرُهُ وَيَرْفَعُهُ فَيُوَسِّعُهُ.

(٢) قال ابن جرير: وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن، ولأن أصل الكرسي العلم، ومنه يقال للعلماء: كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال: أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير.
(ش): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قال: «والكرسي موضع القدمين (رواه الذهبي في «مختصر العلو»، وصححه الألباني). ورواه أبو الشيخ أيضًا في «العظمة» (٢/ ٦٢٧) عن أبي موسى الأشعري، وصححه الألباني). قال الإمام «الطبري» بعد أن ذكر بعض الأقوال في تفسير الكرسي: ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب، غير أن الذي هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ ...، [تفسير «الطبري»، جامع البيان (٥/ ٣٩٩)].
ثم قال بعد صفحتين ما نقله المؤلف: «وأما الذي يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذي رواه جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عنه أنه قال: «هو علمه» [جامع البيان:(٥/ ٤٠١)].
وقد أنكر الشيخ محمود محمد شاكر في تحقيقه لتفسير «الطبري» «جامع البيان» (٥/ ٤٠١) على ابن جرير«الطبري» ما اعتبره تناقضًا. ونقل عن أبي منصور الأزهري أن الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «لكرسي موضع القدمين». وأن هذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. وأن من روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل. ثم قال الشيخ محمود محمد شاكر: «وهذا هو قول أهل الحق إن شاء الله. وقد أراد «الطبري» أن يستدل بعدُ بأن الكرسي هو «العلم»، بقوله تعالى: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما»، فلِمَ لم يجعل»الكرسي» هو»الرحمة»، وهما في آية واحدة؟ ولم يجعلها كذلك لقوله تعالى في سورة الأعراف: ١٥٦: «قال عذابي أصيب به من أشاء آية ورحمتي وسعت كل شيء»؟ واستخراج معنى الكرسي من هذه الآية كما فعل «الطبري»، ضعيف جدا، يُجَلّ عنه من كان مثله حذرًا ولطفًا ودقةً. =

أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك والضلال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبدًا.

البَلاَغَة: ١ - في آية الكرسي أنواعٌ من الفصاحة وعلم البيان منها حسنُ الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى، وتكرار اسمه ظاهرًا ومضمرًا في ثمانية عشر موضعًا، والإطناب بتكرار الصفات، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف، والطباقُ في ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أفاده صاحب «البحر المحيط».

٢ - ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم، وعدم الانفصام ترشيح[1].

٣ - ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في «تلخيص البيان»: وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب، وعاقبة الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب[2].

فَائِدَة: أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد، وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة.

= وأما ما ساقه بعدُ من الشواهد في معنى «الكرسي»، فإن أكثره لا يقوم على شيء، وبعضه منكَر التأويل. وكان بحسبه شاهدًا ودليلًا أنه لم يأت في القرآن في غير هذا الموضع، بالمعنى الذي قالوه، وأنه جاء في الآية الأخرى بما ثبت في صحيح اللغة من معنى»الكرسي»، وذلك قوله تعالى في «سورة ص»: «ولقد فتنا سليمان وألقينا على آية كرسيه جسدا ثم أناب».

(١) (ش): حيث قُرِنَت الاستعارة بما يلائم المشبه به، فعدم الانفصام يلائم العروة والتمسك بها. والترشيح إكمالٌ للاستعارة يقويها.

(٢) «تلخيص البيان» ص١٥.

تنبيه: آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله[١] وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة وآل عمران وطه»[٢] وقال هشام: أما البقرة فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [الآيات: ١ - ٢] وفي طه ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ [الآية: ١١١] قال ابن كثير: وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد[٣].

قال الله تعالى:

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٥٩ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٢٦٠

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين، ذكر هنا نموذجًا عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله، فذكر هاهنا قصصًا ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر والبعث بعد الفناء.

اللغَة: ﴿حَآجَّ﴾ المحاجّة: المغالبة يقال: حاججته فحججته، وحاجّه أي بادله الحجة ﴿فَبُهِتَ﴾ انقطع وسكت متحيرًا قال العذري:

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أُرَاهَا فُجَاءَةً ... فَأُبْهَتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عُرُوشِهَا﴾ العرش: سقف البيت، وكلُّ ما يهيأ ليُظلَّ أو يُكنَّ فهو عريش

---

(١) (ش): عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قَالَ: قُلْتُ: اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضَرَبَ فِى صَدْرِى وَقَالَ «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
(لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ) أي لِيَكُن العلمُ هنيئًا لك، وفي الحديث مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه وَدَلِيلٌ عَلَى كَثْرَةِ عِلْمِهِ.

(٢) (ش): رواه الحاكم وابن ماجه وحسنه الألباني.

(٣) ابن كثير المختصر ١/ ٢٣٠

﴿يَتَسَنَّهْ﴾ يتغيّر ويتبدّل من تَسَنَّهَت النخلة إذا أتت عليها السنون وغيَّرَتْها ﴿نُنشِزُهَا﴾ نركّب بعضها فوق بعض من النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض: نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ ضمهنَّ إليك ثم اقطعهنَّ من صار الشيء يصوره إذا قطعه.

التفسير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر، المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو «النمروذ بن كنعان» الذي جادل إبراهيم في وجود الله؟ ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي حين قال له إبراهيم مستدلًّا على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضًا أحيي وأميت، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال: هذا قتلتُه، وأمر بإطلاق الآخر وقال: هذا أحييتُه، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إفحامًا ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي أُخْرِس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة، وأصبح مبهوتًا دَهِشًا لا يستطيع الجواب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يُلْهِمُهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثل لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خرَّ بها بُخْتُنَصَّرَ ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه «عزير» على الرأي الأشهر: كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها؟ قال ذلك استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجبًا من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب والدمار، وكان راكبًا على حماره حينما مرَّ عليها ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتًا مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثت في هذه الحال؟ قال يومًا ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال: أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ أي بل مكثت ميتًا مائة سنة كاملة ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان، وكان معه عنب وتينٌ وعصير فوجدها على حالها

لم تفسد ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلًا من البلى ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحمًا بقدرتنا ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال: أيقنت وعلمت علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى: اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ أي أولم تصدِّق بقدرتي على الإحياء؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤية ذلك ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ أي فرِّق أجزاءهن على رءوس الجبال ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ أي نادهنَّ يأتينك مسرعات قال مجاهد: كانت طاووسًا وغرابًا وحمامة وديكًا فذبحهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي لا يعجز عما يريده حكيم في تدبيره وصنعه. قال المفسرون: ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيرًا كما كانت وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل. ذكره ابن كثير.

البَلاَغَة: ١ - ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجيب.

٢ - ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار، والصيغة تفيد القصر ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت، وبين كلمتي «يحيي» و«يميت» طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ «المشرق» و «المغرب».

٣ - ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ التعبير بالنَّصِّ السَّامِي[1] يُشْعِرُ بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال فبهت الكافرُ لما أفاد ذلك المعنى الدقيق.

٤ - ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ موت القرية هو موتُ السكان فهو من قبيل إطلاق

(١) (ش): أي ما ذُكِرَ من كلام الله عز وجل.

المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل.

٥ - ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ نسترها به كما يستر باللباس قال أبو حيان: الكسوةُ حقيقةً هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطّى العظم وهي استعارة في غاية الحسن[1].

الفوَائِد: الأولى: قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران فالمؤمنان «سليمان بن داود» و «ذو القرنين» والكافران «النمرود» و «بُخْتُنَصَّرَ»[2] الذي خرّب بيت المقدس.

الثانية: لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه.

الثالثة: سؤال الخليل ربه بقوله ﴿كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كَيْفَ﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[3] ومعناه: ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى.

قال الله تعالى:

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

---

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٢٩٤.

(٢) «مختصر ابن كثير» ١/ ٢٣٤.

(٣) (ش): رواه البخاري ومسلم.

وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان: أولياء الله وهم المؤمنون، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان، ذكر هنا ما يرغّب في الإنفاق في سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله، لأن الجهاد في سبيل الحق ميادين ثلاثة: أولها الإقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال.

اللغَة: ﴿بِٱلْمَنِّ﴾ أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه، وأن يذكّره النعمة على سبيل التطاول والتفضل قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَّانِ

﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤية وهو أن يرى الناسَ ما يفعله حتى يثنوا عليه ويعظموه ﴿صَفْوَانٍ﴾ الصفوان: الحجر الأملس الكبير قال الأخفش: وهو جمْعٌ واحِدُه صفوانة وقيل: هو اسم جنس كالحجر ﴿وَابِلٌ﴾ الوابل: المطر الشديد ﴿صَلْدًا﴾ الصَّلْد: الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئًا ومنه جبينٌ أصلد ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض يقال: ربوة ورابية وأصله من ربا الشيء إذا زاد وارتفع ﴿فَطَلٌّ﴾ الطلُّ: المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد: الطلُّ الندى ﴿إِعْصَارٌ﴾ الإعصار: الريح الشديدة التي تهبُّ من الأرض وترتفع إلى السماء كالعمود ويقال لها: الزوبعة ﴿تَيَمَّمُوا﴾ تقصدوا ﴿تُغْمِضُوا﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه وهذا كالإغضاء عند المكروه.

سَبَبُ النّزول: نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك، حيث جهز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فصار رسول الله ﷺ يقلّبها ويقول: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال: يا رسول الله كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتُها ربي، فقال له رسول الله ﷺ : «بارك الله لك فيما

أمسكت وفيما أعطيت»، فنزلت فيهما الآية ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾[1] الآية.

التفسير: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ قال ابن كثير: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أي كل سنبلةٍ منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّتْ سبعمائة حبة، وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل عليم بنِيَّة المنفق ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يُعْقِبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه كقوله: قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يعتريهم فزعٌ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائتٍ زهرة الدنيا ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفحُ عن إلحاحه، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذلّ السؤال ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ أي مستغنٍ عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره. ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثوابًا أو يخشى عقابًا ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظانُّ أرضًا طيبةً منبتةً ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلدًا أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلًا كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالًا صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ أي لا يجدون له ثوابًا في الآخرة فلا ينتفع بشيءٍ منها أصلًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد. ثم ضرب تعالى مثلًا آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي ينفقونها طلبًا لمرضاته وتصديقًا بلقائه تحقيقًا للثواب عليه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكانٍ مرتفع من الأرض، وخُصَّت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٤٧.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جَنِيَّة مضاعفة، ضِعْفَيْ ثمر غيرها من الأرض ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غَنَّاء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبيّن الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدقوا منه ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله! ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي إنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء. ثم حذّر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفًا لما أنفقتموه زائدًا عن الأصل ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ أي يعطي العلم النافع المُؤَدِّي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي مَن أُعْطِيَ الحكمة فقد أُعْطِيَ الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ شبّه سبحانه الصدقة التي تُنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعمائة حبة، ففيه تشبيه «مرسل مجمل» لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان: وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر[1].

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣٠٤.

٢ - ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسنادٌ مجازي ويسمى «المجاز العقلي» لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى.

٣ - ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول؛ لأن الأذى يشمل المنَّ.

٤ - ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ﴾ فيه تشبيه يسمى «تشبيهًا تمثيليًّا» لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾.

٥ - ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ ...﴾ الآية، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة «استعارة تمثيلية» وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبّه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، والهمزة للاستفهام، والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يود أحدٌ ذلك.

٦ - ﴿تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك، ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة[١].

الفوائد: الأولى: قال الزمخشري: المنُّ أن يعْتَدّ على من أحسن إليه بإحسانه، وفي نوابغ الكلم «صِنْوَان: مَن مَنَحَ سَائِلَهُ وَمَنَّ، وَمَنْ مَنَعَ نَائِلَهُ وَضَنَّ»[٢] و«طَعْمُ الآلاءِ أَحْلَى مِنَ الْمَنِّ، وَهِيَ أَمَرُّ مِنَ الْآلَاءِ مَعَ الْمَنِّ»[٣] [٤] وقَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِنِ امْرُؤٌ أَسْدَى إِلَيَّ صَنِيعَةً ... وَذَكَّرَ فيها مَرَّةً لَلَئِيمُ [٥]

الثانية: المطرُ أوَلُه رَشٌّ ثم طشٌّ ثم طَلٌّ ثم نَضْحٌ ثم هَطْلٌ ثم وَبْلٌ، والمطر الوابل الشديد الغزير.

الثالثة: قَالَ عُمَرُ بن الخطاب يَوْمًا لأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ. فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلِ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ» أخرجه البخاري.

---

(١) «الفتوحات الإلهية» ١/ ٢٢٣.

(٢) (ش): الصِنْو: النظير والمثيل النائل: المُعطِي. نالَ عليه بهديّة/ نالَ له بهديّةٍ: جادَ، أعطاهُ إيّاهَا.

(٣) «الكشاف» ١/ ٢٣٨، والآلاء بالفتح شجرٌ حسن المنظر مر الطعم كذا في الصحاح.

(٤) (ش): الآلاء الأولَى: النِّعَم. والآلاء الثانية: شَجرٌ مُرُّ الورق، والمنُّ الأول: شيء يشْبه العسل يقع كالنَّدَى على بعض شجر البادية. والمَنّ الثاني: تذكيرُ المُنْعَم عليه بالنِّعْمَةِ. والمعنى أنَّ طَعْمَ النِّعَمِ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَلكنها إنْ صَاحَبَها الْمَنُّ فَهِيَ أَشَدُّ مَرَارَةً مِنَ شَجَرٍ وَرَقُهُ مُرٌّ.

(٥) (ش): أي لو أن رجلاً أعطانى عَطِيَّةً وذكَّرني بها مرةً واحدةً، فإنه لئيم.

الرابعة: قال الحسن البصري: هذا مثل قلَّ والله من يعقله: شيخ كبير، ضعف جسمه، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإعصار فأحرقها، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

المناسبة: لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته، وترغّب في إخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء، فوجه المناسبة ظاهر.

اللغة: ﴿فَنِعِمَّا﴾ أصلها «نعم ما» أدغمت الميمان فصارت نعمّا قال الزجاج: أي نعم الشيء هو ﴿أُحْصِرُوا۟﴾ الحصر: الحبس أي: حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ من العفة يقال: عفّ عن الشيء أمسك عنه وتنزّه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ السِّيما: العلامة التي يعرف بها الشيء، ويقال: سيمياء كالكيمياء وأصلها من السّمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿إِلْحَافًا﴾ الإلحاف: الإلحاح في السؤال يقال: ألحف: إذا ألحَّ ولجَّ في السؤال والطلب.

سَبَبُ النّزول: عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» فنزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ مبيحةً للصدقة على من ليس من دين الإسلام[1] [2].

التفسير: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه ﴿وَمَا

(١) «القرطبي» ٣/ ٣٣٧.

(٢) (ش): ضعيف، رواه الواحدي في «أسباب النزول».

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء آثامكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم، والآية ترغيب في الإسرار ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي أيّ شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ خبر بمعنى النهي، أي: لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافًا مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئًا من حسناتكم ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء الذين حبسوا أنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئًا أصلًا فلا يقع منهم إلحاح وقيل معناه: إن سألوا سألوا بلطفٍ ولم يلحّوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات، من ليل أو نهار، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ ﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر.

٢ - ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ في الإبداء والإخفاء طباقٌ لفظي، وكذلك بين لفظ «الليل والنهار» و «السر والعلانية» وهو من المحسنات البديعية.

٣ - ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ إطناب لورودها بعد قوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ الذي معناه يصلكم وافيًا غير منقوص.

فَائِدَة: قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطُنع إليك فانشره وأنشدوا:

يُخفي صنائعه والله يُظهرها ... إن الجميل إذا أخفيتَه ظهرا

قال الله تعالى:

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

المنَاسَبَة: لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا، وحضّ على الصدقة، ورغب في الإنفاق في سبيل الله، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح، الذي هو شحٌّ وقذارة ودنس، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل «وبضدها تتميّز الأشياء» .

اللغَة: ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ لغة: الزيادة يقال: ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة والرابية: وشرعًا: زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل[1] ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ التخبط: الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي: خبط في عشواء وتورَّط في عمياء، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل أو جنون ﴿ٱلْمَسِّ﴾ الجنون وأصله من المسّ باليد كأن الشيطان يمسُّ الإنسان فيحصل له الجنون ﴿سَلَفَ﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يَمْحَقُ﴾ المحق: نقصان الشيء حالًا بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال: محقه

(١) (ش): هذا التعريف للربا خاص بالزيادة في الدَّيْن، وهو ربا النسيئة، وهناك ربًا آخر هو ربا الفضل. وقد جاءت الشريعة بتحريمه أيضًا، وهو زيادة في أحد الجنسين إذا بيع أحدهما بالآخر. بحيث إذا بيع ذهب بذهب فإنه لا يجوز إلا مِثلًا بمثل ويدًا بيد، فاشترط فيه التقابض والتماثل فمن زاد أو استزاد فقد أربى، فإذا باع صاع قمح بصاعين ولو كان يدًا بيَد فقد وقع في الربا. وقد حرَّمت الشريعة الإسلامية ربا الفضل في ستة أشياء: الذهب، والفضة، والبُرِّ، والشعير، والتمر، والملح.

الله فانمحق وامتحق ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم المتمادي في الذنوب والآثام.

سَبَبُ النّزول: كان لبني عمرو بن ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ الآية. فقالت ثقيف: لا يد لنا «أي لا طاقة لنا» بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط[(١)] [(٢)].

التفسير: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سويًّا، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكًا لهم وفضيحة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب استحلالهم ما حرّمه الله، وقوله:م: الربا كالبيع فلماذا يكون حرامًا؟ قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ أي أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع، لأن فيه زيادة مقتطعة من جهد المدين ولحمه ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أي من بلغه نهيُ الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي أمره موكول إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحله بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ أي يُذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر، ويُكثر الصدقات وينميها وإن كانت نقصانًا في الشاهد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي لا يحب كل كفور القلب، أثيم القول والفعل، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار، ثم قال تعالى مادحًا المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون، واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقًّا ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس: يقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ

(١) «البحر المحيط» ٢/ ٣٣٧.

(٢) (ش): موضوع، أخرجه أبو يعلى في «مسنده» والواحدي في «أسباب النزول».

لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ أي إذا كان المستدين معسرًا فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه: إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر العظيم ثم حذّر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي احذروا يومًا سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفسٍ حسابها وأنتم لا تظلمون، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد[1].

قال ابن كثير: هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى.

البَلاَغَة: ١ - ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا ﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبّه مكان المشبّه به كقول الشاعر: كأن ضياء الشمس غرةُ جعفر والأصل في الآية أن يقال: الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلًا يقاس عليه فشبهوا به البيع.

٢ - ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوا ﴾ بين لفظ «أحلَّ» و «حرَّم» طباق وكذلك بين لفظ «يمحق» و «يربي».

٣ - ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ صيغة فعّال وفعيل للمبالغة فقوله: ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم.

٤ - ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾ التنكير للتهويل أي بنوعٍ من الحرب عظيم لا يُقادَر قَدْرُه، كائن من عند الله، أفاده أبو السعود.

٥ - ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى «الجناس الناقص» لاختلاف الشكل.

---

(١) (ش): اختلف أهل العلم في آخر آية نزلت من القُرآن، على أقوال متعددة، تكلم فيها كلٌّ بما أداه إليه اجتهاده، وذلك بناءً على ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم، ويحتمل أن كُلًّا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل، وليس في شيء من ذلك خبر عن المعصوم ﷺ، يمكن القطع به . وأكثر العلماء على أن آخر آية نزولًا هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]

٦ - ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ التنكير للتفخيم والتهويل.

الفوَائِد: الأولى: عبّر بقوله: ﴿يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواءٌ في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر في الحديث الشريف «لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء»[1].

الثانية: شبّه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين، وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا يوم القيامة.

الثالثة: أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلُ يداينُ الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيتَ معسرًا فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنا، فلقي الله فتجاوز عنه»[2].

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾

المنَاسَبَة: لما ذكر تعالى الربا وبيَّن ما فيه من قباحة وشناعة، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة، وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

---

(١) (ش): عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).
مُوكِلُ الرِّبَا: مُطْعِمُهُ، أي المُمَكِّن منه غيره.

(٢) انظر الأدوار التي مر بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩.

اللغَة: ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ من الإملاء وهو أنْ يُلقي عليه ما يكتبه يقال: أملَّ وأملى ﴿يَبْخَسْ﴾ البخس: النقص ﴿تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ السأم والسآمة: الملل من الشيء والضجر منه ﴿أَقْسَطُ﴾ القِسط: بكسر القاف العَدْل يقال: أقسط الرجل إذا عدل، وبفتح القاف الجورُ يقال: قسط أي جار ومنه ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] ﴿تَضِلَّ﴾ قال أبو عبيد: معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿تَرْتَابُوٓاْ﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فَرِهَـٰنٌ﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقًا للدين.

التفسير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي إذا تعاملتم بدينٍ مؤجل فاكتبوه، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علّمه الله ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدينُ وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي وليخشَ الله رب العالمين ولا ينقص من الحق شيئًا ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذرًا أو كان صبيًّا أو شيخًا هرمًا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لِعيٍّ أو خرسٍ أو عُجْمة فلْيُملل قيِّمُه أو وكيله بالعدل من غير نقصٍ أو زيادة ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكّرها الأخرى، وهذا علةٌ لوجوب الاثنين لنقص الضبط فيهن ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ أي لا تملّوا أن تكتبوا الدَّين صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى، وأثبت للشهادة لئلا تنسى، وأقرب أن لا تشكّوا في قدر الدَّيْن والأجل ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضرًا يدًا بيد والثمن مقبوضًا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقًا سواءٌ كان البيع ناجزًا أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي لا يضر صاحبُ الحق الكُتَّاب والشهود ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه

فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم، فليكن بدل الكتابة رهانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحقّ وثيقة لدينه ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتَمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثمًا وصاحبه فاجرًا، وخُصّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد.

البَلاَغَة: ١ - في الآية من ضروب الفصاحة «الجناس المغاير» في قوله ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ وفي ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ وفي ﴿اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ وفي ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ... عَلِيمٌ﴾.

٢ - الطباق في قوله ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ وفي ﴿تَضِلَّ ... فَتُذَكِّرَ﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان.

٤ - الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثلته صاحب «البحر المحيط».

٥ - كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس.

٦ - ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ جمع ما بين الاسم الجليل والنعت الجميل مبالغة في التحذير.

فَائِدَة: العلم نوعان: كسبيٌّ ووهبيٌّ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللُّدُني ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين[1] وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله:

---

(١) (ش): قال الشيخ بكر أبو زيد: «هذا الاصطلاح من مخترعات الصوفية ومواضعاتها، وإلا فإن العلم اللدني هو: العلم العِنْدِيُّ، فـ«عند»، و «لدنّ» في الآية معناهما واحد في لغة العرب التي بها نزل القرآن، فما لم يكن العلم من عند الله على لسان رسول الله؛ فلا يكون من لدنه، والأُمور مرهونة بحقائقها». [معجم المناهي اللفظية (ص: ٣٨٥)]. قال الإمام ابنُ القيِّم: «الْعِلْمُ اللَّدُنِّيُّ: مَا قَامَ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَمَا عَدَاهُ فَلَدُنِّيٌّ مِنْ لَدُنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَقَدِ انْبَثَقَ سَدُّ الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ، وَرَخُصَ سِعْرُهُ، حَتَّى ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ أَنَّ عِلْمَهُمْ لَدُنِّيٌّ، وَصَارَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالسُّلُوكِ وَبَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ، وَيُلْقِيهُ شَيْطَانُهُ فِي قَلْبِهِ: يَزْعُمُ أَنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّيٌّ، فَمَلَاحِدَةُ الِاتِّحَادِيَّةِ، وَزَنَادِقَةُ الْمُنْتَسِبِينَ

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ الْعِلْمَ نُورٌ وَنُورُ اللَّهِ لَا يُهْدَى لِعَاصِي

قال الله تعالى:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

المناسَبَة: ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين إلخ. فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السماوات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد.

اللغَة: ﴿إِصْرًا﴾ الإِصْرُ في اللغة: الثِّقَل والشِّدَّة، قال النابغة:

يَا مَانِعَ الضَّيْمِ أَنْ يَغْشَى سَرَاتَهُمْ وَالْحَامِلَ الْإِصْرَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا غَرِقُوا[1]

وسميت التكاليف الشاقة إِصرًا لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصرًا لأنه ثقيل.

﴿طَاقَةَ﴾ الطاقة: القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل

﴿واعف عَنَّا﴾ العفو: الصفح عن الذنب ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: ستر الذنب ومحوه.

سَبَبُ النزّول: لما نزل قوله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما

إِلَى السُّلُوكِ يَقُولُونَ: إِنَّ عِلْمَهُمْ لَدُنِّيٌّ، وَقَدْ صَنَّفَ فِي الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ مُتَهَوِّكُو الْمُتَكَلِّمِينَ، وَزَنَادِقَةُ الْمُتَصَوِّفِينَ، وَجَهَلَةُ الْمُتَفَلْسِفِينَ، وَكُلٌّ يَزْعُمُ أَنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّيٌّ، وَصَدَقُوا وَكَذَبُوا فَإِنَّ اللَّدُنِّيَّ مَنْسُوبٌ إِلَى «لَدُنْ» بِمَعْنَى عِنْدَ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: الْعِلْمُ الْعِنْدِيُّ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِيمَنْ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ عِنْدِهِ وَمِنْ لَدُنْهُ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَعَالَى بِأَبْلَغِ الذَّمِّ مَنْ يَنْسِبُ إِلَيْهِ مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [البقرة: ٧٩] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] [مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٠٠)].

(١) (ش): (الضَّيْمُ): الظُّلْمُ. السَراة: جمع السَرِيّ: الشريف، الكريم الحسب.

نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ «فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (١) الآية»

التفسير: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السماوات والأرض المطّلع على ما فيهن ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يعفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي صَدّق مُحمدٌ ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحى وكذلك المؤمنون ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي الجميع من النبي والأتْباع صدَّق بوحدانية الله، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فنسألك ياالله المغفرة لمن اقترفناه من الذنوب، وإليك وحدك يا الله المرجع والمآب.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحدًا فوق طاقته ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شرّ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم. والمعنى: لا تعذبنا يا ألله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقَرْضِ موضع النجاسة(٢) ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أنت يا ألله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا

(١) أخرجه مسلم وانظر «أسباب النزول» للواحدى ص ٥١.
(٢) (ش): القَرْضُ: القَطْعُ.

برسالة نبيك ﷺ . روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة: قد فعلتُ[١].

البَلاَغَة: ١ - تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق» في قوله ﴿وَإِن تُبْدُواْ ... أَوْ تُخْفُوهُ﴾ وبين «يغفر» و «يعذب» ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كَسَبَتْ﴾ و ﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾ لأن (كسب) في الخير و(اكتسب) في الشر.

٢ - ومنها الجناس ويسمى جناس الاشتقاق في قوله ﴿ءَامَنَ ... وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

٣ - ومنها الإطناب في قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ .

٤ - ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي آمَنُوا بالله ورسله. ومواضع أخرى.

فَائِدَة: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِى لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » أخرجه البخاري[٢] وفي رواية لمسلم أن ملكًا نزل من السماء فأتى النبي ﷺ فقال له: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِىٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ».

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (ش): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا». قَالَ: فَأَلْقَى اللهُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ - قَالَ قَدْ فَعَلْتُ ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا﴾ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

(٢) (ش): رواه البخاري ومسلم.